

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY



32101 012616270

---

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

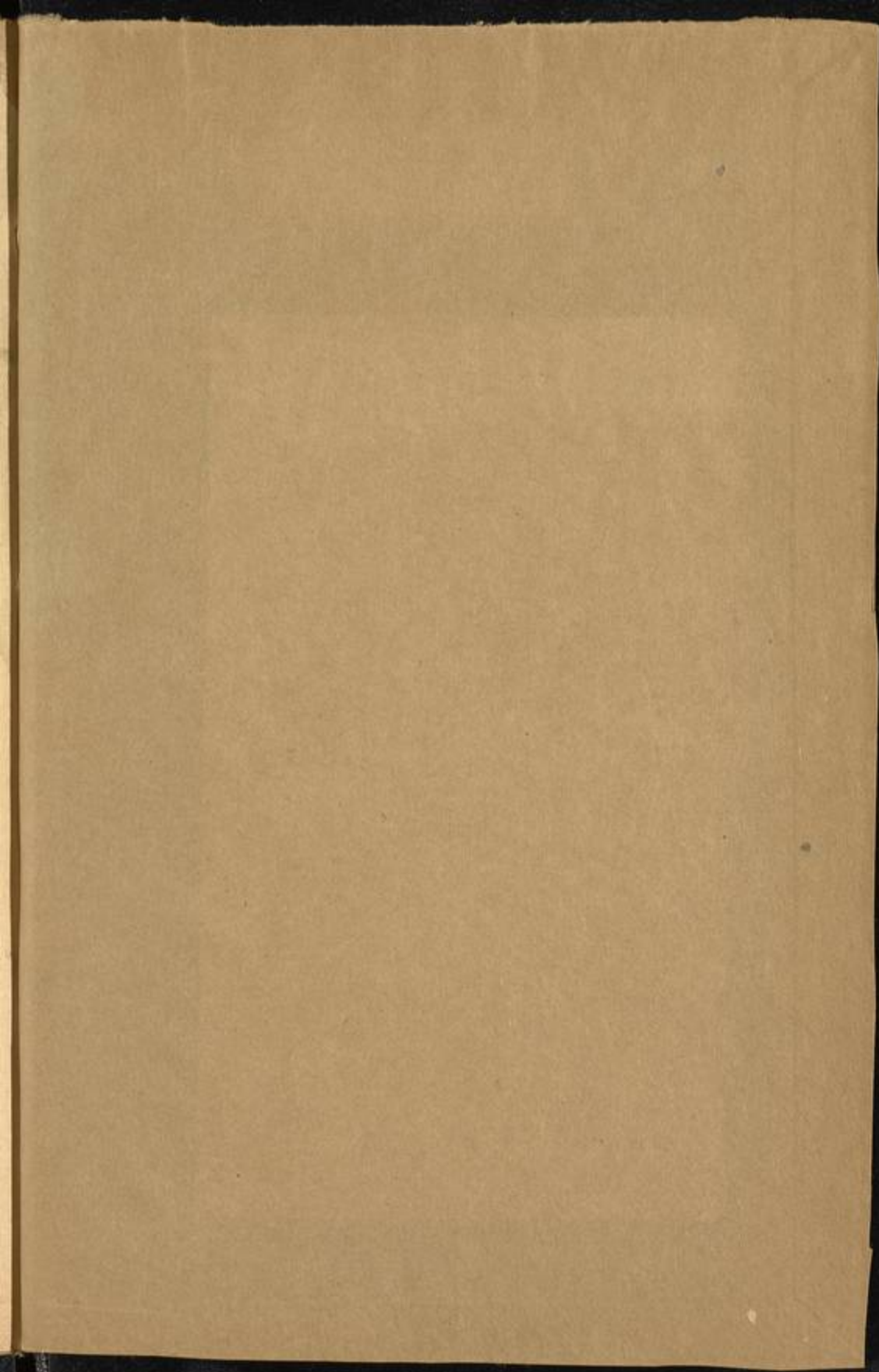
---

*This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.*

---

--	--





١٣٩٥  
F. Makhlūf

# التيقن

رواية اجتماعية قومية

بقلم

فريد مخلوف

وضع مقدمتها

الدكتور عبد الرحمن الكيالي

الطبعة الاولى

جميع الحقوق محفوظة

عني بنشره : عبد السلام بديع

دمشق \* مطبعة الاعتدال

نمن النسخة : فرنكان

## اهداء الكتاب

الى الشاب الحر ، الأنوف ، المناضل ، القوي بفكرته ، الكبير  
بعلمه ، العظيم في جهاده



(Arab)  
PJ7846  
.A49465T52

الدكتور سيف الدين المأمون

مراقب الشباب الوطني العام ، ومثله الاعلى ،  
أرفع هذا الكتاب .

الخلص

فريد مخلوف



## كَلِمَةٌ بَرِيئَةٌ

ما زال ادبنا القومي الحاضر ، في حاجة الى كتب عربية سهلة القراءة  
سهلة الاطلاع ، سلسلة الاسلوب ، رائعة الخيال ، جذابة الصور ، بارزة  
الافكار تنبه شعور الشباب الوطني ، وتذكي قوادم ، وتثير روجهم ،  
وتنشط همهم لتمجيد تاريخهم ، وحب بلادهم ، والاعتزاز بلسانهم ،  
واخلاق اباؤهم ، مما هو عامل قوي في النهضة الفكرية ، والادبية والسياسية  
واساس متين في بناء الاخلاق التي تقوم على التضحية ، والواجب ، وقول  
الحق ، والصراحة ، وايجاد المثل العليا للكرامة والعزة والنبالة .

واذا كانت الكتب الحاضرة الموضوعية لدى القراء ، سواء من نوع  
الروايات ، او الأفاصيص قد خبطت شوطاً لا بأس به في الأدب  
القومي ، والعربية ، فإنها بمجموعها لم تسد الحاجة المطلوبة لشرح معنى  
الحرية ، والقومية ، والمبادئ المذكورة اعلاه ، لأن المترجم منها ، فيه  
ما لا يتفق مع الذوق العربي ، والآداب الشرقية ، وفيه ما يحسن اوست

يستفاد منه لغة ومعنى ، ولكن ليس فيه ما يشفي غليل الدور التكويني ،  
او يتلاءم مع الدور الانتقالي الذي نحن فيه ، والمغرب وان فاقت مزاياه  
النوع المتقدم ، لكنه قد يخلو من الروح الحية التي تنبعث من روح



الدكتور عبد الرحمن الكيالي

المؤلف ، ونفسية ، او من الصور التي يرسمها لابطاله ، او لنفسه ، او  
لحوادثه ، والمؤلف بذاته فيه التأفة وفيه الاولي ، وفيه القليل من الراقي  
الذي يصح للدراسة والتعميم والنشر ؛ وعلى كل فالملؤفات التي هي من



وضع ابناء الضاد ومستمدة من خلقهم ، وروحهم ، وذههم ، وطباعهم ،  
وحاجاتهم ، ومحيطهم ، وتاريخهم ، وحياتهم ، ومن اشخاص بلادهم ،  
وحوادث وطنهم وامتهم هي خير وابقى .

ومن هذا القبيل الذي يحسن تقديمه للقراء ، ككتاب صادر عن  
شاب هو في مقتبل العمر ، ينظر للمستقبل بعين بعيدة ، ووجه باسم ،  
ويخلص لبلاده ، وافته ، ويمجد لفته ، وآبائه ، كتاب ( الثورة ) الذي  
يعد بحق ارقاً حياً لما يخالغ قلب صاحبه من حب للحرية ، والاستقلال ،  
واستعداد للتضحية والدفاع ، وتمجيد للعرب والعربية .

وبعد فان كتاب الثورة للاستاذ « فريد مخلوف » ابطاله ثلاثة :  
شيخ علمته السنون قيمة الوطن والحرية ، ومعنى البطولة والتضحية ،  
وواجب الدفاع عن العرض والكرامة ، وشاب علمته الثقافة العلمية ،  
ثقافة العصر الحاضر ، معنى الفتوة والجرأة ، والوطنية والاقدام ، وافهمته  
حقيقة الحياة ، والحب ، والانسانية وزودته بالصراحة ، والحق ، والكفاح ،  
وفتاة اجنبية غريبة ، اعطتها الطبيعة كل ما تحتاجه من جمال ، وذكاء ،  
وشعور ، وعاطفة ووفاء ، وقد رمز مؤلفه بالشيخ الى ماضي امته النبيل  
وما يحويه ، وبالفتى الى حاضر قومه ، وما يجب عليهم ، وبالفتاة الى

الماطقة التي تتنازع شباب اليوم ، وهم ينظرون الى تاريخهم ، واجدادهم  
وما كان لهم من سوؤد ومزينة ، وفضل ، وما ظهر بينهم من قادة السيف  
وابطال الحرية ، ورجال الفكر ؛ ويقابلونهم بما يرونه في انفسهم ، وفي  
المدنية الغربية التي تحيط بهم ، وما يتوجب عليهم نحو امتهم ، وبلادهم  
وذاتهم ، ونحو المحتلين ( المتديين ) الذي قد ر لهم ان يكونوا محتلين  
البلاد واصحاب السلطان .

اما حوادثه فهي خيالية اقرب للحقيقة من غيرها ، لا تكلف فيها  
ولا تصنع ولا اطالة ، بل فيها الاختصار ، والذلة ، والحياة ؛ ومما يجعل  
الكتاب ذا فائدة لاتعادل ، ان المؤلف قد اتى في الحوادث ، والظروف  
التي تخيلها ، وجعلته يتعرف الى الشيخ ، والفتاة الجميلة « ايلين » بصور  
بديعة ترسم حبه للطبيعة ، وعواطفه الثائرة ، وتبين كوامن نفسه العميقة  
وشواعة الحساسة ، ويلونها بالوان من العبارات المتقدة الانية ، تدل  
على مقدرته للتعبير عما يخالج فؤاده ، وتنحس به عواطفه .

وليت شباب اليوم الذين يسيل في عروقهم دم الفتوة الحار ، والذين  
تمتقوا بروح العصر والعلم ، يتقدمون كالاستاذ فريد مخلوف لتأليف  
امثال هذه الكتب المفيدة ترجمان تريتهم ؛ وذليل وطنيتهم ، وضور



عواطفهم ، فيسدون الحاجة التي يتطلبها ادبنا القومي الحاضر وينذرون  
افراد امتهم ذكوراً واناثاً بخير ما يفيدهم ويقويهم والسلام .

حلب في ١٥ ايار سنة ١٩٣٤

الدكتور عبد الرحمن الكيالي





## كلمة المؤلف

الفت هذا الكتاب قبل سنتين في مدينة حلب المحبوبة ، وقد اخترتني ظروف الحياة وقتئذ عن طبعه . ثم مر وقت رأيت بعده ان الامة لم تعد بحاجة الي من ينبه شعورها — وهي متنبهة — وان افضل ما فعله ان ادفن هذا الكتاب في حفرة الالهال والتي عليه تراباً كثيراً ...؟

غير اني لما رأيت استيقاظ النمرات الطائفية والجذسية في هذا الوقت ورأيت تلاعب المستثمرين المنافقين بابناء وطني ، ورقص المضللين والطامعين على قبور الشعب اللبناني ! واندفاع بعض ابناء لبنان وراء قومية « لبنانية » هي اشبه شيء بالانتحار — لما رأيت كل ذلك ، كان لزاماً علي ان اذف بهذا الكتاب الذي يعبر تعبيراً صحيحاً عن عاطفة « عزية » متحررة صادرة عن كاتب لبناني عاجز اذا انكروا عليه كل شيء — !! — فلا يستطيعون ان ينكروا عليه اخلاصه ، وانعتاقه من القيود ، وانطلاقه الي افق واسع بعيد عن الانانية ...

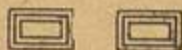
ان الشباب العربي اللبناني المثقف لا يريد ان يفتر بالاضاليل .. وهو يرى ان لاهياة لجهاله الا بالوحدة ، ويرى ان هذه الوحدة يجب ان تظلمها الجريات الديموقراطية ، لانه لا يريد هذه الوحدة مساومة على مصالح

الشعب . وهو يرجو من رجال البلاد في المستقبل ان يفتحوا عهداً  
جديداً مملوئاً بالتسامح ، ومشبعاً بروح الديمقراطية الصحيحة ، حتى  
يقضوا على ترده ، — تردد الشباب — ويدفعوه مرة واحدة الى قلب  
المعركة ، بلا حذر ولا تخوف ...

وانا اعترف ان هذه الرواية قد جاءت متأخرة ، ولكن ، ليس  
كثيراً ... فاذا كنا قد خطونا الخطوة الاولى في سبيل التحرر فقد بقيت  
امامنا خطوات سنقطعها اذا عرفنا كيف نخرج من عزلتنا السياسية ،  
ونشارك مع بقية الامم في تقرير مصير الافراد والجماعات .

دمشق في ١ تشرين اول سنة ١٩٣٦

فريد مخلوف





## الفصل الاول

- ١ -

كان الرجل الجبار المجاهد ، قد بلغ الثمانين من عمره ، فرجع الى بلده بشراي (١) وبنى له بيتاً صغيراً منفرداً على كتف وادي قاديشا ، يقضي فيه البقية الباقية من حياته ، في عزلة تامة ؛

رآه البعض فقالوا ان هيئته تشبه هيئة كهنة الاصنام القدماء ، فكان يجلس كل مساء على شرفة منزله المطلة على الوادي يحدق في الافق ، ويراقب بعض القرويات اللواتي دهمهن الظلام ، فعدن من الحقول ، خائفات مسرعات .

وطالما رآه السراة صدفه ، يمشي وحيداً في سكون الليل ، ويتنقل على الهضبات والتلال والمنخفضات ، كأنما اضاع فيها املاً خداعاً ، يقطع الليالي في التفتيش عنه لا يكل ولا يمل .

اما القمر فلو استطاع لحدثك عنه احاديث مطربة غربية ، فانه لم يعمل الا فق مرة ، الا اطل عليه قرب غدیر ، او على ضفة بحيرة ، او وسط روض نضير ، يلتقي على مسامع الليل المصغى همسات غير مفهومة ، ويكلم رفقاء خياله كلاماً شجياً كأنه سحر غامض .

وقد اوسعت وحدته مجالاً للظن والتخمين ، فكان الناس ينسجون

---

(١) - قرية مشهورة في شمالي لبنان .



حوله حقيقة الاقوال المختلفة المتباينة ، فمن قائل ان الجهاد قد اتعبه فناء  
يستريح من العناء الماضي ، الى آخر يقول انه طرح آماله الماضية المعذبة  
فاتخذ مسكنه الجديد مكانا لتزدهد ، وما بين هذا وذاك ، واحد يؤكّد  
ان الكبر قد خبله ، فاعتزل الناس ، ليخفي ضعفه ونمّود فكره ، وراء ستر  
من التكتم والوحدة .

اما انا فقد كنت اسمع هذه الاقوال دون ان اعيرها انتباها كبيرا  
لان الامور التي تشغل الناس ، لم تكن في الحقيقة ، تشغلي ، والظنون  
التي كانت تساورهم لم تكن يوما لتدور بخلدي ، وما ذلك عن كبرياء  
ولكنني نشأت بين قوم عظيمهم احمق والمستنير فيهم منبذ محقر .  
لم اكن قد ادر كت شيئا من اسرار الحياة ، بل اعترف بانني كنت  
جاهلا اغتر بالظواهر ، فلا افهم من الامور سوى قشورها ، غير ان  
السماء قد وضعت في قلبي حب التفرد بالرأي ، فكنت ، وانا لا ازال  
صغيرا ، اثق بنفسي ، واحقر العظام والاعباد .

ففي صبيحة يوم ، وقد صفا الجو ، ورق النسيم ، حملت كتابا من  
الكتب التي لم تكن تفارقني ، في اكثر ايام الصيف ، وذهبت وحدي ،  
اتجول في تلك الربوع الرائعة انشدها الحلامي الضائعة ، واريح في سكينتها  
فؤادي المضطرب والمتعطش الى الحقيقة .

ولو ان لي صفاء فكري ، وخيال الماضي لكنت اصف لك بعض المناظر الخلابه التي كنت اراها في طريقي ، والتي لا يخلو منها مكان في تلك الانحاء . اما اليوم فصرت اميل الى الاعتقاد ان المناظر والطبيعة نفسها لا تستحق كل هذا الاكتر ان نصفها ونجهدا نفسنا للتمبير عن شعورنا نحوها .

ولكن لا بأس ان نعترف بأن الطبيعة كانت ولا تزال تحدثنا بلغة روحية ، عن اشياء كثيرة خافية عن العقل البشري ، وتوحي الى الانسان حب البساطة والتسامح والجمال . فالطبيعة والارض ، وجميع الاجرام والكواكب ليست سوى ادوات يسخرها الفكر ليحل بواسطتها قيود الغموض والكتمان ويبرز الى حيز الوجود والوضوح .

كنت احب الطبيعة في ذلك الوقت ولا ريب ان حيي ايلها قد افادني بهذب اخلاقي تهديبا ما كنت لاحصل عليه لو بقيت محصورة في سجن كرهى للطبيعة والنفور منها ، وسوف تبقي تلك المشاهد التي ملأت تصورات طفولتي وشبابي اثارا دائما في روحي يوحي الي اجمل التعابير واصدق الرسوم والصور .

قلت انني حملت كتابي وجعلت اسير في تلك الامكنة الوعرة المسالك ، تقودني الاحلام التائهة حتى وصلت الى نهر قاديشا الذي يجري هادرا في واديه الابدي فاتخذته لي رفيقا ، وتبعته مجرى مياهه المتدفقة



الى ان اشرفت على شلال قطع مسيري بغتة فتوقفت .

اجلت النظر حولي فاذا به يقمع على مشهد من ارووع المشاهد:  
غزالة تظهر فوق الافق خائفة مذعورة كأنها تخشى ان تقلل  
اشعتها من جمال تلك الربوع وجبال جرداء تتشامخ نحو السماء بعظمة  
وجبروت كأنها نفوس الابطال واودية غريبة العمق والانحدار تمشي  
فيها السكينة وتخيم فوقها اجنحة الجلال المهيبة ونهر وسواقي تترنم  
وتنشد انشودة البقاء الخالدة وعصافير خفقت قلوبها للحب تغرد تغريدا  
قصيرا وتذهب مرفرفة في فضاء سحري رهيب . . .

التهني هذه المشاهد المختلفة عن القراءة فذهبت افتش عن مكان  
مرتفع يمكنني اذا ما جلست على قمته ان ارى كل ما حولي وما كدت  
اصل الى المحل الذي انتقيته حتى رايت على مقربة مني شبحا ابيض جالسا  
فوق صخر عظيم لم اكد اميزه حتى عرفت انه الشيخ .

لم يرق لي هذا المنظر لاني لم اكن احب المتزهدين وان حسبت  
نفسي منهم في ذلك الوقت لان الشمور الذي كان يدفعني الى الوحدة  
لم يكن شعورا طبيعيا راسخا في قلبي بل عارضا وقتيا بسيطا ولده نفوري  
من الناس الجهلاء الذي كنت اعيش بينهم فلا اجد عندهم معرفة  
ولا كالا .



ولكنني قلت في نفسي : « ان النظر الى هذا الشيخ والتقرب اليه لا يخلوان من لذة قوية هي لذة الاستطلاع ، فلعله من المفيد ان اغتنم هذه السانحة فاذهب اليه واحدثه فاسمع منه ما يتمنى الكثيرون ان يسمعوا بعضه !

ذهبت الى الشيخ هادئا ولم اعرف كيف يجب ان ابدأ الحديث معه حتى خرجت التحية من في فرأيتني يتسهم لي بوداعة غيرت فكري نحوه في برهة قصيرة وجعلتني احترمه واهيبه كأن وراء تلك الابتسامة البريئة التي ارتسمت على شفته معرفة وحكمة كنت اتنى لو اهب حياتي لاحصل على بعضها .

وقبل ان اقرب منه للسلام عليه وجدت فرصة لافحص ملامحه القريبة فاذا به مشرق الوجه ابيض البشرة شائب اللحية والرأس ، ضعيف الوجه تكاد تبرز منه العظام اسود العينين كبيرهما يشع فيها الذكاء وتختلج وراءهما الحياة .

وكان في مجموع هيئته ما يوحي القوة والشدة والعزة ، كانه يحوي في ملامحه وتقاطيع وجهه سر قلبه الكبير وروحه المتمردة القوية . وقد كان طويل القامة ، رقيقا يرتدي ثوبا ابيض يزيد ، مهابة وجلالا ، ويحمل عصا غليظة تضيف شيئا الى قوة عزيمته ، وصلابة طلته .

وما كدت انتهي من فحص هيئته حتى بادرنى الكلام قائلاً: « ان حظك  
لجيد فلقد اتيتني في وقت انا فيه هادى، الفكر صافي الذهن لا اتضجر  
من الناس ولا آنف محادثتهم اما اذا كنت تمر بي صدفة فأمنى لك كل  
سرور وبهجة في زهتك هذه »

قلت « لست بقاصد ولا متمزه ولكنني فتى تقوده الاحلام الى حيث  
لا يدري فاذا كنت تراني هنا فلأن الاقدار شاءت ان اجتمع قليلا برجل  
حكيم منلك خبر الايام والليالي ، فجاء يقضي بقية حياته في راحة وسكينة.  
بيد اني اذا كنت مغتبطا بسماع اقوالك ومشاهدتك فانا لا احب  
المتوحدين الذين يهربون من متاعب الحياة التي يقتحمها الابطال  
ليلجأوا الى راحة الوحدة وكسل الاحلام .

انا اعرف اننا لم نوجد عبثا في هذه الحياة وان علينا واجبا يجب ان  
نتممه وغاية يجب ان نسمى وراءها مادمننا نسير على هذه الارض غير اني  
لا اعرف هذه الغاية وذلك الواجب الان وهذا ما سوف اجتهد لكي اعرفه  
في المستقبل .

اما انت فلست الومك ، ولعل من اقصى امانى ان اعيش في مثل  
وحدتك في آخر عمري بعد ان اكون عرفت ما اريد معرفته واطلمت  
على ما احب الاطلاع عليه لان اوراق الاشجار التي قطعت الربيع والصيف



صار من حقه ان تسكن في الحريف قبل ان تكفنها تلوج الشتاء وتضمها الى صدر  
النسيان الابدي» .

و كنت اخاطبه بلهجة صادقة و ايمان حر فرفع راسه الى العلاء برهة  
كانه ياول ان يري في الفضاء ما تعود ان يراه من قبل ويكاد ان لا يلمحه  
الان. ثم حول وجهه الي وقال لي بتؤدة و رزانة : « لملك تريد ان تجلس  
هنا قليلا ، فقد اعجبني حديثك ! »

جلست قبالة على الصخر و كنت لا اعرف ماذا يستطيع ان يقوله  
لي هذا الشيخ و يرضى عن كلمتين القيتها على مسامعه بلا اتران ولا  
تفكير ولكنني في الحقيقة انست اليه و باركت في قلبي الصدف التي  
جمعتني به .

قال لي « لملك لا تنزعج اذا استنسبتك فانا اود ان اعرف شخصية  
جليسي اليوم » فترددت فاستطرد قائلا « افهم هذا يا بني : ان الرجل الذي  
يوسع نفسه لاقتبال المعرفة و الحقائق يأنف من ذكر الروابط التي تربطه  
بالمادة ولكنه لا بد له من ان يعترف بان الحقائق التي يلمسها لا يحصل  
عليها من العدم ، بل بواسطة العوائق المادية التي يحاول الهرب منها وهي  
ضرورة لوجوده و كماله »

انتسبت اليه ، فجعل يتأوه وقال « اواه ! اترف ماذا حضر الي

فكري اتسبك من خيالات الماضي ورسومه ؟ لقد كان جدك رفيقي  
واخي نعمت بصحبته زمنا لقينا فيه الحلاوة والمرارة والراحة والتعب ، وعند  
موته كنت آخر من وقع نظره عليه فودعني آملا ان التقى به بمدان ترك  
هذه الحياة !!

فسرت من هذه الصدفة الغريبة التي جمعتني برفيق قديم لجدي  
الذي طالما قص علي والذي عنه قصصا تشبه قصص الابطال الاقدمين .  
وفي الحقيقة ان جدي كان بطلا لا تزال ربوع الشمال تحفظ له  
ذكرى شجاعته وحريته ، حتى صارت اخباره قصصا سائرة في تلك الجهات  
يلقيها الجدود على مسامع احفادهم ، قرب المواعد ، في ليالي الشتاء الباردة  
وفي الحقول ، عندما يجلس القرويون حلقات حلقات للاستراحة من عناء  
الاعمال الشاقة التي يقومون بها .

ولقد علقت بفكري صورة حية لجدي ، لكثرة الاقوال التي كنت  
اسمها عنه ، فقد كان جميل الطلعة ، قوي العضلات ، طويل الجسم ، ذو  
فكر وقاد ، وعقل كبير ، وشجاعة غريبة حتى قيل انه كان احسن شبان  
الشمال صورة في عصره .

غير ان هذه الصفات لم تكن لتمتصه في قلبي ، مثل صفة اخرى ، لا تزال  
الي الان تجرؤ نفسي ، وتهز كياني ، وهي محبته لآخوانه ووطنه ؛ وقيل



لي انه كان ملاك رحمة في تلك الربوع ، يكفكف دموع البائسين ،  
وينتصر للمظلومين ، ويدفع النكبة عن الأشقياء ، ما استطاع الى دفعها  
سبيلاً .

ولكن موته كان عبرة كبرى فلقد كان يكره المتسلط والمستبد  
والاجنبي المسيطر ، فكان يعيش في مقدمة المجاهدين لتحرير بلاده مضجعا  
حياته وراحته وامواله في سبيل وطنه وحرية .

وعند ما فشل احرار البلاد من رفع نير الأتراك عنهم لم يكن  
نصيب جدي بافضل من نصيبهم ، فانه لم يطق الإقامة بدم في  
وطن ذليل وارض مستعبدة ، فذهب الى شواطئ بعيدة خلف هذه  
البحار وفي بقعة مجهولة وارض قصية جاد بنفسه الاخي خلفا قصة حياته  
شاهدة على ظلم الاجانب المستبدين وعلى جهل البشر .

اعاد قول الشيخ الى رأسي كل هذه الافكار وسكنت برهة كثيرا  
كأن ذكرى الايام الخالية قد حركت في قلبه حز نادفينا وبعد صمت طويل  
قال لي وهو يمسح دمة سقطت على خده : « اني لن اقص عليك اخبار  
جدك يا بني فلا شك انك سمعتها كثيرا حتى صارت تنقل عليك بتكرارها غير  
اني لا بد لي من ان اذكر لك امرا ربما لم تعرفه من قبل وهو موت جدك :  
هجرت معه هذه البلاد وعند ما تحررت السفينة بنا لتترك هذه

الشواطىء اخذنا نذرف الدموع الغزيرة لمغادرتنا ارضا جميلة نشأنا فيها  
وترعرعنا، ودافعنا عن حريتها جهداً، الى ان شاءت الايام، فاقصتنا عنها  
وعن احبائنا المتخلفين فيها .

ولكن ذهابنا لم يكن عن جبانة، فان السماء تشهد اننا لم نستسلم  
يوماً للضعف، ولم نعرف الخوف مرة وسط العواصف والاهوال، فكنا  
نقتحم المخاطر بشجاعة، ونحمل المشقات العديدة بصبر عجيب، ولكننا  
عندما رأينا القوة تنتصر على الحق، والظلم على الحرية والحياة، تركنا هذه  
البلاد لان وجودنا فيها دون ان نستطيع نفعها، اصبح شبيهاً بتجار معنوي  
بطيء لا تضاهي مرارته مرارة الموت .

تركنا هذه البلاد ونحن نحمل في قلوبنا اماني الابطال المجاهدين  
الذين عرفوا ان يوجدوا من ضعفهم قوة يقاومون بها المستبدين، وعندما  
خانتهم هذه القوة رجموا من المعركة فخورين غابطين حط من استشهد منهم  
في ساحة القتال يقنخرون انهم لم يستسلموا للظالمين ويمشوا كغيرهم اذلاء  
خائفين قانعين بحالتهم المريرة .

تركنا عن هذه البلاد، وذهبنا الى ارض غريبة تجهل ما كنا فيه  
لوعة وجرقة واسى، ولكننا لم نعش فيها عيشة المغلوب، بل جاهدنا  
الاقوياء لنحصل المال مشتغلين بجمعه، وكنا في كل وقت ننتظر



عن الماضي ، ونأمل ان نرجع يوما لنعود الى الجهاد في سبيل الوطن .  
ولكن هذه الامنية لم تتحقق فقد مرض جدك وامسى في خطر ،  
وكنت سميره الوحيد مدة مرضه ، وفي ذات يوم ، وقد دنا موته ، دعاني  
اليه فرأيتُه مبتسما مستبشرا ، وقد اقتربت منه المنية ، وتكاد ان تنشر  
عليه ظلها .

اظهرت التجلد ، وكانت القصة تكاد تقتلني ، فقال لي يهدوء : « لماذا  
اراك حزينا كأنك تجزع لموتي ؟ فهل انت جهول الى هذا الحد حتى تأسف  
لذهاب رجل قام بواجبه حق القيام ، ولاقى المنية بشعر باسم وقلب  
مطمئن ؟

لقد قمت بواجبي فلا يجب ان تحزنوا لفقدي ، واذا كنت ويا كم  
لم تقدر ان تتم رغائب الحياة ، فكفى اننا جاهدنا جهادا ابطلا !! ارفع رأسك  
وافرح معي لانني سوف أتمتع بنور فجر آخر ، وانتم بمالم نال فيه  
منتهى الكمال .

ثم حول وجهه الى جهة الشرق ، وشخص ببصره وقال : « يا بلادي  
الابطال وموطن الانبياء ومهبط الوحي ، ومجلى الالوهية !  
انني في ساعة موتي ان اتنى لك نصيبا افضل من نصيبك اليوم  
يا رب وعزك الماضي ؟

لقد ضحينا وجاهدنا لاجلك وقاسينا المصاعب والشدائد ، فهل اقدر  
في ساعة احتضاري ان اتاكد من ان جهودنا التي زرناها في تربتك سوف  
تثبت وتزهر وتثمر ، وآملنا التي بعثناها في فضائك مع الرياح سوف تعصف  
وتقتلع الاشجار اليابسة في حقول احلامك؟

وضمف صوته فيما عدت استطيع ان افهم اقواله غير انه استمر يتكلم  
في سره . كأنه نبي في ساعة احتضاره يناجي نفسه باقوال خالدة في عالم  
الضمير والكتمان ، ولكنني كنت استطيع ان افهم معنى كلمات ذلك البطل  
التي لم اكن اسمعها ، فاظن انها كانت سوى صلاة عميقة قوية لنصر بلاده  
ونجاح وطنه .

ثم اختلجت شفتاه قليلا و اشار الي بيديه كأنه يقول لي اقرب ؛  
ثم قال لي بصوت متقطع هو اقرب الى الهمس منه الى الكلام : « لا تبق  
هنا بعد موتي ... فليست هذه ... بالبلاد التي يرتاح فيها مثلك ...  
ان هناك مدة حياتك ... منزل صغير في بقعة منفردة في بلادك ...  
وصفصافة تظل ضربحك .. بعد موتك . اقرب مني لاقبلك .. اذ كرني ..  
الوداع ! »

اسلم الروح فقامت بواجبي نحو صديقي الراحل ، واتييت الى هذه  
البلاد احمل له طي القوادحجة خالدة ، وذكري دائمة . اتيت متسترا ، لا اريد ان



يمرف احدامري بعد ان فقدت اخواني الابطال المجاهدين الذين تركوني  
في هذه الحياة الشقية ، انتظر ساعة رحيلي . اتيت لاشهد من جديد مراحل  
الذل والاستعباد التي تقطعها هذه البلاد الشقية .

ان هذه الوحدة قاسية علي يا بني ، لانني اعيش فيها غريباً عن هذه  
الارض بين سمع الناس وبصرهم ، فاننا تمس لم يبق لي همة لاجاهد فجئت  
الى هذا المكان ادفن فيه سر القوة التي حركت ضعفي يوماً من الايام ،  
واحمل الي القبر افكارا كان احري بالبلاد ان تفهمها وتمشي بموجبها لتقدم  
وتسير في موكب الحرية والحياة .

لقد جددت فكري واقتبلت تعاليم اليوم ، واطلمت على جميع ما انتجه  
الفكر البشري ، فلم اعد من ابناء الامس ، وهذا منزلي حافل بالكتب  
مملوء بالاسفار ، غير انني لم ار في جميع هذه الكتب ، ما يروي ظمأ  
الروح المتعطشة الى الحقيقة ، ويهديه ثورة القلب المشتاق الى  
المعرفة .

اجل وهؤلاء كتاب بلادنا فهل رأيت منهم من يسلمح اقواله بالخناجر  
ضد المستعمرين ويرضى ان يفقد راحته ، لينير سبيل سواه ، ويطلع في  
سماء بلاده مشعلاً يلقى الانوار على جفون اخوانه الراقدين ليستيقظوا  
ويجبلوا انظارهم في حقيقة الوجود ؟

لقد اصبحت ضعيفا خائر القوى ، فمن اين لي القوة لاصرخ في  
سماء بلادي فيسمعي الناس ويفهمون؟ انني لست ناقا ولا متشائنا فما انا  
بالجهول الذي يحسب ان الحياة كريهة والوجود عبء ثقيل ، ولكنني  
متحرق على افكاري التي تذهب ضياعا ، وسوف تدفن معي  
في القبر .

\* \* \*

قال لي هذا و كنت مصغيا اليه اصغاء شديدا خيل لي منه انني  
تركت الوجود، فلم اعد اعرف او اعني شيئا سوى كلماته القوية الحية التي  
امتلكنتني فلبثت هنيئة جامدا لا اصدق انني اسمع مثل هذه الكلمات الكبيرة  
الجبارة التي لم اتعود سماعها من قبل .

لقد قرأت كتبا كثيرة لا اعظم كتاب العرب ، و درست بعض الكتب  
الشهيرة لكتاب الغرب ، فما لقيت فيها ما يلذ لي ويفيدني ، لان اكثرها كان  
بعيدا عن الواقع وعن الحياة التي كانت سائدة حولي ، فان كتاب الغرب  
الذين كنت امجدهم ، لا يستطيعون بطبيعة الحال ان يفهموا حقيقة حياتنا وهم  
بغيدون ، غريبون ، يختلفون عنا في محيطهم وثقافتهم واخلاقهم . اما كتاب  
العرب فلم يكن فيهم من ساعدته القوة ليقف في وجه التيار الجارف من  
الافكار المعروفة ويتخذ له طريقا جديدة يسير عليها وحده ويكشف لنا في



نهايتها عالما من الحقائق والخيالات ...

كان أكثر كتاب هذا العصر ، ينصرفون عن النظر في حالتهم  
وحالة بلادهم ، الى التفكير بأشياء مبتذلة لا تفيدنا شيئاً ، فكانت مصيبتنا  
بوجودهم ، أشد من مصيبتنا بفقدهم . وطالما مسكت كتابا شهيرا لعظم كتابنا  
فما اكاد اقرأ فيه قليلا حتى اطرحه غاضبا مشمئزاً .

اجل ، لقد كنت الى ذلك العهد ، وقبل ان اسمع كلام ذلك الشيخ ،  
احقر كل ما تصل اليه يدي من منتوجات الفكر ، وكان عنوري على  
قطعة واحدة بديعة ، انتصارا لي وفوزا ! فانا لا اعرف قيمة لهذا الادب  
الذي لا يوقفني على حقيقة حياتي الحاضرة ، ويفيدني افادة حقيقية في  
الفكر والعمل .

كنت اسر من اولئك الكتاب العالمين الذين يضعون نصب  
اعينهم محبة البشرية جماء ، غير ناظرين الى الفوارق والبلدان ، ولكنني  
ن كنت اعجب هؤلاء الكتاب الغربيين لان بلادهم قوية فانا اعد وجود  
مثلهم في الشرق الضعيف المغلوب ، وبالا عليه وشؤما .

وفي الحقيقة ان سماعي كلام الشيخ كان لي وقتئذ بمثابة فتح جديد  
في عالم المعرفة والحكمة ، وتمثالت نفسي واقفا حقيقة امام فكر شرقي متبصر ،  
وغاظة قومية جبارة لا تعرف اولا تريد ان تعرف غير حريتها وعز وطنها .

وقد تحول في ذلك الشعور الاول الذي دفعني الى سماع اقواله بدون  
اكتراث ، الى لذة وتعلق به لا يستطيع ان اعبر عنهما ، لانني رأيت في  
كلماته ما كنت اصبو الى معرفته ، واحس به في داخلي ، دون ان استطيع  
تبيانه .

كنت احب الحرية ولكن لم تكن لي الشجاعة لكي اعتنقها ،  
واقدم المعرفة ولم تكن لي القوة لكي ابني لها هيكلاني ارض احلامي  
فاعبدها ، فيما كدت اصغي الى حديث الشيخ القصير حتى شعرت بجدول  
جديدة تتدفق من قلبي ، واسبابا جديدة لوجودي ، وجهادي في هذه  
الحياة .

حقيقة ان حب الانسانية هو من اجل العواطف التي تختلج في  
قلب كل انسان يصبو الى اعتناق صفات الالهية والكمال . ولكن ما  
لنا ولحب البشرية في البلدان المغلوبة ، فقد عرفنا ان المبادئ السامية لم  
تقد البشرية يوما ، بل حملتها اتعابا حمة لتطبيقها ، وان الحياة العملية هي  
الاصل والسلم الذي نصعد عليه الى قمة السعادة والحرية والمعرفة .

قلت للشيخ : « لقد وجدت عندك يا ابي الحكمة التي طالما طلبتها  
في الليالي فلم اجدها ، فبحق المحبة التي كانت تربطك بجدي ان لا تبخل  
علي باقوالك الحكيمة ، فوالله انني لا احسب ان هذه الربوع قد شهدت



قبلك رجلاً حياً عليماً . فما اشد فرحي بك ، وما اعظم قدرك في مملكة الحق !» .

فابتسم قليلاً وقال لي : « لنقم من هذا المكان ، فان الشمس قد اعتلت في الافق واخاف ان يرانا بمض الفلاحين ، فانا لا احب ان اتصل بالناس ، بعد ان صممت النية على الوحدة والانفراد » .

ثم سار فمشيت ورائه ، حتى وصلنا الى منزله فدخلناه ، وكنت افكر في نفسي واقول كيف يستطيع ان يعيش وحده في عزلته ، ومن عساه يقوم بحاجاته ، حتى دخلت المسكن ، فدهشت اذ رأيت فيه فتاة لا تكاد تتجاوز السادسة عشرة جالسة على مقعد تقرأ في كتاب . التقيت عليها التحية بشيء من الخجل والاضطراب ، اذ لم اكن متوقفا ان ارى داخل البيت احداً . فلحظ الشيخ اضطرابي وقال لي ضاحكاً : « لقد نسيت ان اذكر لك ابنتي ( ايلين ) فهي فرنسية يتيمة كان ابوها صديقي فلما قضى نحبه تبنيته ابنته ، فجاءت معي تشاركني حياتي راضية بنصيبها ، وهي عندي في معزة ولدي » .

لبثت جامداً احدق في وجهها ، واستطرد الشيخ قائلاً : « انها لا تفهم لغتنا العربية ، وانني احاول ان اعلمها هذه اللغة فهي تقضي اكثر الاوقات في تفهم الدروس التي اعطيها اياها وقد بدأت تتعلم شيئاً ، لان

صغيرتي ( ايلين ) هي في الحقيقة شديدة الذكاء حادة الذهن.

كان الشيخ يتكلم وانا شارد الفكر ، كأن منظر هذه الفتاة قد نقلني الى عالم غريب ارى فيه معاني الطهر والبساطة والجمال . وعندما جلسنا احسست ان يدا قوية خفية تقر بني منها وتجذبني اليها ، كما تجذب الغريزة الحيوانات العطشى في الصحراء الى الواحات المحافلة بالمشرب والمرعى .

كانت ايلين معتدلة القامة ، ترفرف فوقها البساطة ، ويشع الطهر في عينيها ، وكان جسمها متناسب الاعضاء ، ووجهها متزن التقاطيع ، يكاد يؤلف في مجموعه صورة كاملة للجمال والبساطة . واني احار اليوم كيف اصفها بعد ان غابت عن عيني ، مخلفة في فكري صورة ضئيلة لحقيقة لا يستطيع تبيانها الخيال .

قلت للشيخ : « اني لأعجب كيف تستطيع هذه الفتاة ان تعيش معك هنا في وحدتك ، وهي في هذا العمر المرح الطروب اشده ما تكون حاجة الى اللهو » .

فاجابني : « انها لا تقضي كل وقتها معي كما تتوهم ، بل تمكث شتاء في مدرسة داخلية في بيروت ، اما في الصيف فاهما تسكن معي ، فاذا ما اغلبها الضجر ، بعض الاحيان ، تخرج الي هذه القرى المجاورة ، وقد عرفها سكان هذه الربوع ، عصفورا يفرد في جهاتهم ، وطهارة تسير



على ارضهم»

اما ايلين فقد دهشت لدخول غريب الى ذلك المسكن ، وهي  
ترفيه وجهاً غير وجه الشيخ قبل الان ، وكانت تنظر الى ايها نظرة  
استفهام حائرة ، كأنها تود ان تسأله عن السر الذي احواه ، حتى استطعت  
ان احادث الشيخ ، واتقرب اليه ، ورافقه الى منزله .

وقد كنت في ذلك الوقت كما كثر الشبان الذين يسمون الى السلوى  
غير متحفظين ولا متهيئين ، فلم البث ان اقتربت من الفتاة اشار كها في  
تعلمها القراءة في الكتاب الذي كان يدها ، وقت دخولي ، ولك ان  
تتصور دهشتها ، ومبلغ بهجتها عندما سمعتني اتكلم بلقمتها  
الافرنسية ، التي كنت احبها شديد المحبة في ذلك الوقت .

اما الشيخ فقد سره مني هذا الانس بفتاته ، فتر كنا للقيام ببعض  
حاجاته ، ولما عاد كنت وايلين على اشد المعرفة وامتن الصداقة نتحدث  
بحرية لا يشوبها التصنع ، ونضحك بصفاء نية ، كأن البرهة القصيرة  
التي جمعتنا هي اجيال صداقة بيننا ومعرفة .

ولست ادري اي مشيئة ارادت ان تحرك قلبي بحب هذه الفتاة  
الغريبة الطاهرة ، فقد شعرت بحياة جديدة تمشي في عروقي وعالم فسيح  
من الاماني والاحلام ينفسح امام عيني .

و كنت في قربها اراقب شفيتها عندما تتحركان للكلام ، والاحظ كل صغيرة من حركاتها ، كاني ارى في كل اعمالها ، سحرا شهييا ، يجذب اليه نظر المشاهد ، وكانت رنة صوتها المطمئن ، تشبه صدى الاجراس التي تدق خلف الاودية البعيدة .

وعندما حان وقت مغادرتي المكان ، رأيت ايلين تضطرب كأنها خافت ان اغيب سريعا ، وقد جئت أو نسها في وحدتها ، اما الشيخ فقد وضع يده على كتفي برقة وقال : « ان للغيب يابني مشيئة بك فقد ارسلتلك الي لا تقل اليك بعض الكلمات التي تماوج في خاطري ، وتكون مؤنسا ورفيقا لابنتي ، فلا تحرمني زيارتك الكثيرة .

انت هنا كابني ، لانك حفيد صديق قديم قطعت العمر معه وافترقنا على امل اللقاء . كن كما اريدك ان تكون ، وامش بحرية دون ان تلوي على شيء ، واذا قدر لي ان اموت ، فاحفظ ما سمعته مني ، واتقله للبشر ، فاكون قد حيدت حياة خالدة بعد موتي واحييتك معي .

ولكي اراك غالبا فانا اطلب اليك ان تكون منذ الان معلم ايلين في اللغة العربية فهي تطمئن الي قربك ، وتقبل كماياتك لانني صرت عاجزا لا استطيع ان اجلس اليها ساعات طويلة .



فقلت له ، وانا اشد ما اكون ذهولا ، « انني سأكون منذ الان  
لك ابناً ، يا ابي ، لك ان تأمرني بما شئت اما ايلين فاني سابدل جهدي  
لتعليمها فلا تلبث ان تعرف لغة بلادي . واما انا فان حظي عظيم ، بهذا  
اليوم الذي كان صباحه شاهداً ضجري ، والان يشهد عزائي واغتيابي  
ثم ودعتها وانصرفت ، وانا اعيد في مخيلتي مشاهد يومي فامتلي  
سعادة وغبطة فان ذلك اليوم قد اوقفني بغتة في هيكل الجمال المقدس ،  
الهيكل الذي يضم الحب الى المعرفة والجمال الى الحكمة ، غير ان التعاليم  
تزل وتبدل اما الجمال فهو الاثر الدائم ، الذي ينطبع على صفحة احياء  
الانسان الى الابد .

ان الانسان يستطيع بعد التجارب والمصاعب ان يوسع فكره  
فيجد الحقائق الخفية ، اما الجمال والطهر فانهما يفتحان امام الانسان ابواب  
جنة علوية ، يتمتع فيها الى الابد . نعم ان هذه المادة اللطيفة التكوين التي

نسميها « امرأه » توحى الى الفكر الكمال والبطولة والخلود .

ف تعلم انني اليوم بعيد عن ارض الحب ، بعد ان تنقلت زمانا  
فيها ارتع في مغانيها وسوف تفهم كيف انني في ساعة سمو ضحيث  
يحبى ونزعته من قلبي لاضع مكانه حباً آخر وهو حب بلادي

يعز علي اليوم ان انشر صحفه . من حياتي كانت مطوية ، لاسيما وانا  
غيري في الامس ، لان تلك العواطف المحدودة التي كانت مستقرة في  
قلبي كالمياه الرا كده قد تبخرت وارتفعت عن القيود ، غيراني لا بدلي  
ان اعترف ان الماضي الذي انكره اليوم ، قد كاز لي بمثابة الباب الذي  
انفتح امامي فدخلت منه الى جنة العواطف العلوية .

كنت ضعيفا في اكثر الاحيان و كنت مفترأ بمتروكات القرون  
اعظها وارفعها الى مكان لا تصل اليه مطامحهم و رغباتي كأنا العقول التي  
اوجدت تلك «المتروكات» قد ادمت وانقرضت ، ولكنني عندما فكرت  
قليلا رجعت الى الثقة بنفسي وعلمت ان الخوف قد عظم كل شيء على  
هذه الكرة حتى صرنا نتهيب الماضي ونستصغرهم منا امام ما آتي المستقبل .

ولكن لتبارك السماء ! فان الضغط الذي تلقيته ولا ازال اتلقاه  
قد انتشاني من هوة الضعف بدلا من ان يسحقني ووضعي على قمة جبل  
الحرية ، حيث يتخلص الانسان من العواطف الحقيرة ويتقرب الى  
اماني ، الالهية نافضا عن روحه كل غبار ذرته عليها رياح الارض .

انني احس حقيقة انني لست ذرة ضعيفة حقيرة على هذه الارض كما  
كان يخيل لي ، بل اكاد اقول ان قلبي يسع الارض والفضاء والاجرام



والكواكب ؛ بيد اني لست اريد ان اقتنع بعالمي الغريب متلهياً باناشيدي  
راضياً بوحدي ، لان اليد العاملة التي تنفض الغبار عن الزهرة هي اجمل من  
الف ابتسامه تتلقى بها الفجر و الزهور والرياض !

ولكن كيف ادعكم تشعرون بشعوري وتزيمون عن كلماتي ستور  
الشك والوهم لتروا وراءها ما كنت اراه عند كتابتها ؛ انني اتيت العالم  
كالسفينة الناشرة شرعها يقبض على دفتها ربان جبار ماهر ، ولكنها سفينة  
لاستطيع ان تجوب جميع البحار ، وتخضع لارادتها الانواء والعواصف ،  
فاقتنعت بشاطئها ، وبقيت تتنقل في هذه الموانئ التي تعودت رؤيتها ، تستقبلها  
اهازيج البحارة و اشاراتهم الفرحة في كل ميناء منها .

اني كالسفينة فدعوني اتقل في شواطئكم ، واذا كنت ساجد بين  
عواصفكم الغرق ، فان نصيبي لافضل من نصيب الف سفينة رأت  
الف شاطيء ، ثم استقرت منسية في مكان مجهول ، رابضة على ارض  
لا تعرفها ، جاعلة مخابئها احجارا لثعالب البرية ، الى ان يأتي يوم لا يرجعها  
فتنقرض وتمحى .

غريب هذا التغير الذي طرأ على افكاري وعواطفي ، فقد كنت حتى  
الامس القريب احب البشرية جباراً وشبع اقوالي وتألفني بهذا الحب  
الذي ليس له نهاية ولا حد ، انشد السلام بين الشموب واطلب التقدم

والكمال لبني الانسان .

واني لا عجب الان كيف كنت اصرف افكاري عن بلادي فاتلهمي  
بنصح البشر جميعا وانسى الواجب الذي اتدبني اليه السماء عندما وجدتني  
على هذه البقعة من الارض، اتنعم بخيراتنا وافتخر بالانتساب الى ابطالها  
وعظماؤها .

ولكن ليفهمني الجميع، فاذا كنت اليوم قد احببت بلادي وسعيت  
لخدمتها متمجبا من عهد كنت اسعى فيه لخير البشرية وسلامها دون النظر  
الى الحدرد والفوارق، فاني اليوم اكره كل اجنبي متسلط في بلادي كرها  
شريفا يجملني اقاومه بكل قوتي لا بدمه، حتى اذا ما خرج مددت اليه يد  
الوداد مصافحا، وابتسمت في وجهه ابتسامة العطف والاخلاص .

انني امقت الافرنسيين لان هؤلاء الكرماء الذين علموني الحرية  
وعرضوا تماثلها الذي يستهوي النفوس امام عيني، قد كسبواوني بالقيود  
وغمروا رأسي برمال الصحراء. اجل! واذا كنت اتكلم مع ضعفي فلأن  
لي قوة عظيمة ارهب من الموت واشد من الحياة، هي قوة عرفها البشر  
لشكسبير، وفولتير، وروسو، وهو جود، بعد ان احمت اسماؤهم عن صفحة  
الوجود .

لي القوة! وانني اقيم الاجيال شاهدة على اقوالي ان احبائي الذين



يؤيدونني ، والابطال الذين ينصرونني ملتفين حولي صارخين بصوتي  
لم يخلقوا بعد! ولكنني سوف ابقى معهم بعد ان يجدونني في نهار طويل  
واتنعم مثلهم بلذة الظفر ضاحكا مثلهم في نعيمهم وراحتهم .

انني لن احيا حتى ارى هذه الارض التي امشي عليها معزة بمن  
تحمل من الابطال الاقوياء السائرين مواكب مواكب وراء الحرية،  
ولكنني عندما اغمض عيني عن النظر الى هذا الحاضر الذليل ، واهد  
افكاري الى المستقبل الهنيء، امتلئ فرحا روحيا كانني عائش في المصور  
المقبلة .

فيا ابناء الغد ، ايها العاشون بعد قرن او قرنين او ثلاثة قرون ،  
اذكروا ان واحدا جاء قبلكم وفي عصور مظلمة ، كان يجب ان يعدمكم ،  
لا لانه قوي وعظيم مثلكم ، بل لان له من تشوقه وحنينه وامانيه اللامتناهية  
ما يجعله يتقرب اليكم .

انني سافكر وسانفرد بافكاري فلا اتطلع الا الى نفسي ، كافرآ الا  
بالمشيئة التي اوجدتني ، منصرفا الا عن الحقائق التي تنتصب امامي  
كعوايد نارية في ليلة مظلمة ، مبنضا الا الحرية التي تظلل حياتي  
كما تظلل شجرة السنديان المعمرة الزهرة النابتة على اصولها .

لتذكر الاجيال انني احببت ، وانني ضحيت بحي في سبيل بلادي

اما اذا كانت هذه التضحية خيالية لان الحب وهمي غير ثابت يأتي كالبلبل مع  
حجيء الصباح ، فيتقل حيناً في رياض الشباب والامل ، ويذهب بمد ما تقف  
الشمس مودعة عند الغروب ، الا فليعلم ابناء القرون المقبلة ان العاطفة  
التي يحسبها الجهلاء وهمية ، هي اثبت من الحياة واصدق من الوجود ،  
سواء اكانت في زمن الشباب حبا ، وفي الكهولة حكمة ومعرفة ، وبعد  
المات خلوداً واملاً .

كنت ضعيفاً مستسلماً قبل ان اعرف ايلين ، وكانت القوة كامنة في  
روحي لا اجد سبيلاً الى اظهارها فتبقى حاكمة سرّاً في عقلي ، تجعلني  
اميراً في مملكة خيال واسعة ، فاضل معزلاً الناس ، وعن هذا العالم  
الذي كنت اعدده غريباً عني ، اما اليوم فقد عرفت كيف احطم ذراعي  
الضعف اللتين كانتا تطوقاني ، واقبل اقدام ارادة الله الحبيبة .





## الفصل الثاني

سرت معها فوق التلال ، وقد فرشت امامها ضحكاتي ، كما تفرش  
الحقول الزهور امام خطوات الربيع .

كان وجه حبيبي ايلين ناعما كاللحم الذي يسكبه الصباح في قلب  
الزنابق البيضاء ، وعيناها هادئتين قصيتين ، تمتد وراءهما عوالم مسحورية  
بميدة المدى .

اما قوامها فكان شبيها بفرسة جديدة ، تتمتع وحدها بنور فجر جديد ،  
هو فجر عالم آخر .

ان العتمة لتجلس على هامه الكواكب النيرة ، ولكن فكري سيظل  
متوقفاً ينقل للبشر اشباح تلك المشاهد ، لتبقى اثرأ خالداً يمثل لابناء الحياة  
ذكرى الحب والجمال .

ولعل اشعة الوحي التي تغمرني لا يفسدها نسقم تعبيري ، فتظل  
سباحة بين روحي وروحها ، حاملة اليها الكلمات التي لم استطع ان انطق  
بها ، مطلعة اياها على اسرار هذا القلب التي بقيت لغزاً ابدياً لم تحله الايام  
او توضحه الليالي ...

سرت معها ... والان بعد ان تحت الاعوام آتار مشيتها عن

صفحة الثرى ، لا ازال اراها سائرة على ارض قلبي ، اجلس معها على  
صخوره ، تتسمع ترنيمة غدرانه ، قاطفين الورود بانامل الحنين ، متنشقين  
النسيم مضمخاً بمير العلاء !

كنت اتبعها الى مجاهل الوجود ، متطلعا حقيقة حياة لانهاية لها ،  
مصغيا الى نغماها ، كما تصغي التلة الى اصوات بعيدة تتماوج في وادمتخف  
عنها ، واليوم . . . بعد ان اختفت عن ناظري ، متوارية خلف جبال  
الكون ووهاده احدق في خطوط الشفق القريبة لعلي المحيا ، واصغى الى  
الفضاء القائم بين نفسي ونفسي ربما اسمع فيه اناشيدها .

فيا ترى من اي طريق يمكنني ان اصل الى ارض وحدتها ، لانظرها  
عارية بين الخائل تحت اشعة الشمس ، وكيف تقدر الفاضي ان تتجسم  
وتلتف برداء ذكرها الذي يحجبها ولا يحجبها ؟

الا اني محتفظ بشيء من ازهار جمالها ، فاتر كوني اثرها في الهواء ،  
ليحملها الى كل حقل ، وملتقط بعض متروكات افكارها الثمينة ، فدعوني  
افرقها على كل طالب لعله ينشرها في معرض افكاره ، فتدوم مادام الفكر  
البشري متقصيا وراء بقايا الزمن .

كنت غمراً مغلق العواطف عند ما عرفتها ، فكأن الغيب ارسلها  
الي في طريق لتخلصني من هاوية الموت ، وترفعني فوق عرش ارفع ربه .



عروش المجد ، وتنياني رغبات ابدع من رغبات البشر . وعند ما نظرتها  
كنت كغرسه ارز نبتت جديداً ، بين ناطحات السحاب المعمرة ، تتطلع  
الى الشمس الضاحكة ، حاملة بعدد القرون التي ستحفظها .

بلي ، وكان الساعة الاولى التي جمعتي بها ، اول ادراك تضعه السماء  
في قلب ابن آدم ، فظننت اني تمثلت امام كل ما كرم من القرون ، واطلمت  
على جميع مخبثات الزمن ؛ بل حسبت اني كبيت الاجيال فتحت عينيه  
بقتة يقظة القيامة .

نظرتها ، واي جرس الهي رن في جوانب نفسي ، ام اي حلاوة  
تحوي كل ما في الكون من تقاوة ؛ وكل ما في الربيع من طهر ، استولت  
على فؤادي ، وما اتصور نفسي وقتئذ الا كدائم السعادة يأتي الى الناس  
في احلامهم الى الابد .

نظرتها ، ومن اين لي فكر الالهة ، لا اين كيف رفعتي نظرتها ،  
في دقيقة واحدة ، فوق الكيان المحدود ، لاسمع اناشيد الملائكة الاعلى وانتصر  
على جميع المواطف البشرية ، بل من اين لي سخر عينها انشره على كلامي ،  
فتوحي للبشر ما كانت توحيه تلك العينان ؟

ووددت لو ان في تعابيري نهاية المواطف العلوية ، التي كانت في  
وادها فاضل تمثل بها جمال تلك المواطف واستحضر فيها صورة قدسية

من صور كالماء ، العالقة بفكري ، كما يتعلق الصفاء والروائح العطرية  
بأذيال الربيع .

ولكن لماذا - لماذا اريد ان اتذكرها كأنها بعيدة عني ؟ اليست هي  
قاطنة في اعماق فكري ؟ وعند ما اجلس كل مساء محدق في الفضاء الست  
روحها بين النجوم ؟

لماذا اصف الجوهره لاسامعين بينما الجوهره في يدي يستطيعون  
متى شئت ان ينظروها؟ ولماذا افتح امامهم سهول خيال يضيعون في نهايتها  
بينما هم واقفون على جبال يباني يرون في صحراء الفكر ما لا يراه ابن  
الصحراء ؟ ...

قبلها كنت كالفلاح المستيقظ عند الصباح ، لم يأخذ بعد نصيبه من  
الراحة ويتخلص من اتمام النهار الماضي ، فيستقبل الفجر متشابوا ويسمع  
ترنيمه الشحرور متأقفا ، فهي جاءتني لتنبهني وتقود خطاي الى حقول الاحلام  
حيث تذببت الفضيلة والطهر والجمال .

كنت متحمسا لبلادي ، اطلب الحرية ، واشعر بوجود شيء اجمل  
من الكائنات ، واقوى من الموت ، شيء لا يعرف الفناء لانه خالد ، ولا يفتر  
بالاضاليل والترهات لانه نبوي المعرفة ، شيء لم اكن ادري له اسما ومعنى  
حتى اتيت فعلمت منه الحياة ...



الحياة! وهل تسكن الكهوف المظلمة الا لتيرها ، وتنتقل على  
الاشجار المنفردة في القفار الا لتحول وحشتها الى انس وكآبتها الى  
بهجة آلهية ؟

ان اوتار هذا القلب تحركت قبلها ولكن تحت تأثير نفخات  
بشرية ، ففي صبيحة يوم شاءت الاقدار ان اعلقه على شجرة في روض  
الحياة فايين جاءته كالنسيات واخرجت منه لحناً ابدياً يشابه الاصل  
الذي ضربه ...

وتالله اني لأهزأ بالفن ، وابدو غريباً عنه لولا ان الفن ينشد ذاته  
المنوية في اهمالي البري ، واني لاسخر من الاساليب السحرية ، والشعور  
اللامتناهي ، لولا ان الشعر نفسه يتجلى في هذه الهمسات الضئيلة !

واني لاعجب من ان اصوات الارض جميعها منذ ابتداء الدهور ،  
وضجيج الخلائق كلها منذ ان وجد الخلق ، قد تجمعت وضيعت ذاتها  
بصوتي الضعيف ، لتخرج اناشيد ابدية على غير معرفة مني ، تهز بمدونتها  
قلب البشر وتنبه بحلاوتها غفلات الزمن الهارب .

واني لاعلم حق العلم ان جيبها وحده مزق الحجاب عن قلبي فشعره  
واشعل مصباح فكري فاضاء ، ولو ان في القلب ما يخلد معرفة الجميل ،  
لكان اليوم فضلها يتردد في كل واد ونداؤها يتجاوب على قنة كل جبل .

فيا ايها الناس ، اتعلمون ان في خريز الفدير المترقق غير اللحن  
الذي يوقمه جريان الماء ، وفي طعم ثمرة التفاح غير اللذة التي تنبه حاسة  
الذوق ، وفي افكار البشر غير المطامع التي تسوق ايامهم والانانية التي  
تضع الغرابة على كل ما يقولونه ويفعلونه ؟

\* \* \*

كنت آتي غالبا الي منزل الشيخ فارى ايلين جالسة تنتظرني ، فلا  
تكاد تراني حتى تهب للملاقاة كن ضيع شيئا ثمينا ثم وجدته . واذا كر الان  
انني تغيبت مرة فعاتبتني وبقيت مدة حاتقة علي لا تكلمني .  
وكان حبا يزايد في قلبي يوما فيوما حتى بت لا أطيق فراقها . و كنت  
احاول ان افتش عن السلوى بعيداً عنها فلا اجدها ، غير ان البهجة كانت  
تلازمني في حالي القرب والبعد ، اذ كنت مطمئن البال احدث نفسي  
بالاماني ولم يخطر على بالي يوما انني سأقدها او يزاحمني احد على حبا .  
وقد جلست يوما احادث الشيخ واتلقى كلماته الحكيمة فرأيت  
ايلين تترك عملها وتأتي الينا لتسمع احاديثنا التي لم تكن تفهمها .  
كان الشيخ يقول لي : « ان الخوف يابني هو علة العلل في الشرق  
بل في العالم اجمع ، فطالما فكرت بالشجاعة لافهم لها معنى حقيقيا فما  
استطعت ، وقد راجعت تاريخ حياتي فرأيت انني كنت ضعيفا في الماضي



وقليلا ما شعرت بالحرية الحقيقية التي تحرك العواصف ، فتدمر الحقول ،  
وتهيج النفوس الذليلة فتتمرد وتثور بيد اني اليوم استطيع ان اكره عن  
الماضي وادعي انني تخلصت من الخوف الذي كان يقيدني سرا ومن  
الاعتبارات الضعيفة التي كنت افسح لها مجالا في عقلي .

ان اقوالى التي اصرح بها اليوم ليست عن هوس أو جنون يا بني  
بل انها تحمل نتيجة تفكير عميق متواصل . وطالما سهرت الليالي  
وقضيت الايام مفكراً دارسا منقبا متأملا حتى عرفت اخيرا ان  
السكوت وحده قد اضر بالشرق ، فلم يستطع ان يظهر حقيقة افكاره  
وامانيه .

لقد بقينا دهورا عدة من يوم ان ذهب مجدنا القديم ، نولد ، ونعيش  
ونموت ، ونحن كما نحن اذلاء ضمفاء نعترا بالاوهام ، ونعيش بالاضاليل  
والترهات ، ونرضى بالحالة الوضيعة التي اوجدت نافعها الايام ، وكنافى كل عصر  
نصيح : « هذه هي قسمتنا ! »

والله اننى اود ان تحرم هذه البلاد سكانها قرنا وقرنين ، ولا يعيش  
فيها مثل هؤلاء الاقوام الذين لا يضيفون الى تاريخها المجيد سوى كلمات  
ذل واستعباد وضعف وجهل !

لقد نمت حينما من الدهر ظننت ان لا يقظة اى بعده ، و كنت في

طول هذه المدة ، انحصرت الكتب واتقبت في الاسفار ، واطلع على الآراء  
الكثيرة في الشرق والغرب ، وما كدت اصل الى هذا الوقت حتى قررت  
فيما قررته ان كل شيء عندنا فاسد ، وانه يجب علينا ان نخرج من هذه  
العزلة البادية اثارها علينا ، ناقين متمردين ونحن نصيح « الثورة » !

اخرج الى العالم يا بني الى جهاد الحياة وجاهر بالاقوال التي تسممها  
منني فان المنية قد امهلتني ، فبقيت بمد اخواني المجاهدين الذين مضوا  
لاحضر للناس شيئا من عواطفهم القوية ، التي رضيت بالمشقات والمذاب  
والموت في سبيل الوطن !

كنا نحارب المضطهدين الاجانب الذين اغتصبوا بلادنا في ذلك  
الوقت ، وكانت الحياة هينة واماني البشر محدودة ، اما اليوم فانا ادرك اننا  
في عصر جديد بقيت لاشهد اوله ، فقد تعددت رغبات البشر واصبحت  
المطامع والآمال واسعة الفضاء ، بعيدة الآفاق فلم يعد بإمكاننا ان تقاوم  
هذا التطور ، الذي ساقنا اليه التاموس الطبيعي .

غير ان مسؤوليتنا قد عظمت بزيادة الغايات التي يجب ان نسمى  
وراءها فان سوريا القديعة التي كانت لا تحتاج الي اكثر من معارضة قوية  
ثليل بعيتها صارت بحاجة اليوم الى ثورة جاحمة تعصف في البلاد وتهز  
مساكنها من اقصاها الى اقصاها ، فلا نلبث ان نرى جميع الناس يصيحون



ويصرخون: « نريد الحرية؛ الحرية المحبوبة » .

اجل ان التحول الذي كان يسوقنا الى باب الحاكم الظالم لنطلب منه العدل ، فلا نلقى سوى الهوان، صار يجب ان يتحول الى عزم وجبروت يدفعنا الى مكان ذلك الحاكم الجاهل لندق عنقه دقا، ونعرض جنته المهشمة على انظار الجمهور الصاحب، الطالب الحق والحرية !

لو كنا في غير هذه البلاد ، لما كان يصح ان نقول هذه الاقوال ، لان الروح الوطنية التي تلهبنا كان يجب ان تتحول في غير بلاد الى روح انسانية ، تميلنا الى نفع جميع البشر؛ وتدفعنا الى مناوئة كل طاغ جبار ، وفئة مضلة .

اما في سوريا، فيجب علينا اولا ان نطرد الغريب الفاتح، ونستقل خير ابا حكامنا ، حتى اذا ما نجحنا، رجعنا الى التفكير بحالتنا والنظر في امورنا، وحينئذ نستطيع ان نقول ونفعل؛ لان الاجنبي الذي ينصر الجهالة اليوم على العلم والجمود على الحركة ، يبطل متسلطا بيننا، يكون قد ذهب وترك المجال للشباب الثائر الطالب الحق والحرية والحياة .

ان التضحية التي تقوم بها اليوم لا تنفع ، لان التلهي فيما بيننا يترك الحرية للاجنبي في اعماله الظالمة، واطالة وجوده بيننا الذي ليس له مبرر . ووالله اني لا اعرف ما معنى قبولنا المبادئ العالمية مادمننا نعرف ان لا نسبـ

للمعدل بين طبقات الشعب عندنا، ونظفل تقدم الغني البخور  
وللارستوقراطي الاعجاب والخضوع والاحترام؟!

هي ثورة هائلة آمنها لهذه البلاد، ولست اعني نفسي منها، فقد  
جاهدت وعملت عندما كنت لا ازال قويا تجري دماء الرجولة في عروقي  
وتختلج العواطف الجامحة في قلبي، اما الان فيكفيني ان اشارك شباب  
الغد في عاطفتي مرسلا اليه من هذه الوجدة كلمات القوة والانتصار .

فقلت له مضطربا : « ابي ما ذا تطلب منا ؟ اتظن ان البلاد اليوم ،  
تقبل هذه المبادئ وترضى بالعذاب والتضحية لتقوم بعمل تعده خيالها  
والقائمين به مجانين ؟ ومن يستطيع ان يدخل في قلب هذا الشعب الجاهل  
الثقة ، ليثور لاجل منفعتهم وتقدمهم ؛ نابذا كل ضلال وعبودية طارحا  
وراء معتقدات الامس القريب والخوف القديم المالك عقله وايمانه ،  
وحياته نفسها ؟

انا اقبل اقوالك يا ابي واعترف بعظمتها ، ولكن العاطفة القديمة التي  
كانت تدفع ابطالنا الى الموت في سبيل البلاد وفي سبيل البلاد وحدها -  
قد احتضرت لا نعتقد عاطفة ارفع منها واسمى ، بل نرجع الى خرافاتنا  
وغرورنا وتعلقنا بعبادات الغرب تعلقا اعمى ضيع علينا ثقتنا بانفسنا ،  
وثقافتنا ومبادئنا .



انا متعلم يابني وانك لتعجب من انني لم اسمع ولم افكر بمثل اقوالك  
قبل الان ، حتى انه يخال لي انني اسمع حكمة جديدة . فان عاطفة الوطنية  
التي حركت شعوبا كثيرة قبل سنين لتطالب باستقلالها ، فقد فقدت  
الان فيها ليقوم مكانها غير مطالب ومبادئ ؛ اما نحن فلم نزل في دوز  
انحطاط ، محرومين فيه كل عاطفة سواء أكانت وطنية ام اصلاحية ، في  
السياسة والاجتماع .

فتبسم الشيخ وجعل يتلاعب بلحيته البيضاء ، ثم قال بلهجة الحاكم  
الذي يلقي حكما رهيبا يخاف ان لا يكون عادلا رغما عن مطابقتها تماما  
القوانين البشرية : « لاتخف من جهلكم وجودكم يا ولدي ، فانكم سوف  
تتحركون ليس بارادتكم بل بارادة قوة خفية حركت الغرب وجاءت  
تحرك الشرق .

وانني ارى منذ الان الدماء تجري ، والنفوس تزهرق واسمع جلبة  
عظيمة تملأ البلاد واصواتا مختنقة تصبح بقوة تتمزق لها العروق : « لن  
نكف عن طلبنا : نريد الحرية ، نريد الاستقلال ، نريد التقدم والكمال ،  
نريد المساواة والعدل » .

اسكت يابني ، فان العاصفة سوف تتور ، وانه خير لنا ان نشرد  
ونموت ونرى اولادنا يسقطون الواحد تلو الاخر ، في ساحة الجهاد ،

ونساءنا ير كضن تأهات فوق الجبال ، ووسط السهول ملتجآت الى  
المغاور . اجل انه خير لنا ان نرى كل هذا من ان نبقى في هذه الحالة  
الدليلة والجهل المطبق .

لارأفة ولاشفقة! فاذا كنت تخاف ان ترى الاوصال متقطعة ،  
والجماجم محطمة . والاشلاء مبعثرة ، فالافضل لك ان تهرب الى مكان لا  
تصل اليه نسيات الحياة ، فتميش حيننا كالحيون ثم تموت تاركا وراءك بقايا  
منتنة وحاملا . مك روحا ذليلة مهيضة الجناح مترددة وجملة ..  
دعني فقد ثقل رأسي دعني .. دعني ..

قال هذا ومضى متاقلا ، فبقيت جامدا متحيرا الى ان تنبته لوجود  
ايلين في جانبي ، وكانت تمدق في متعجبة ، ثم تقدمت مني وقالت لي  
بلغتها الافرنسية ولهجتها الحلوة « ماذا كتبنا تقولان وما سبب هذه الحدة  
التي كانت مستولية عليكما ؟ »

فتحيرت ماذا اجيبها ، وحاولت ان احدثها بغير اشياء . فلم تدعني بل  
قالت اريد ان تتكلم ، اريد ان تجيب ، فقد كتبنا عظيمين في جدالكما  
وكانت القوة تسوق اقوالكما ، فلم يكن بامكاني الا ان اسمعها قل لماذا  
انت ما كت ؟ اترفض طلبي ؟ »

فامسكت يدها الناعمة اللدنة وقلت لها متأوها : « انت طفلة



ساذجة، يايلين، غريبة بثقافتك واخلاقك عنا، لاتستطيعين ان تفهمي معنى  
الاقوال التي كنا ننطق بها، فيما اذا نقلتها الي لغتك . اجل يايلين، فلواني حاولت  
ان افهمك ماذا كنا نقول لتعجبت ورميتنا بالجنون او العماهة.

نحن يا اختي نفكر بحالة بلادنا الذليلة ، وندعو الى طرد الاجنبي  
منها ، وتنوير اذهان ابنائها ، لينبذوا كل عبودية ، ويسموا وراء الكمال ،  
نحن نريد ان تحرك الحرية افئدتهم الساكنة فيتمردوا على الظالمين ، ويشوروا  
على الاجانب المستعبدين .

اما الشيخ فهو المثل الاعلى للجهد والحرية ، يمطيني دروسه في المعرفة  
والحق ، وبدلا من ان اجادله كما يخيل اليك ، فانا اتلقى كلماته العالمة ،  
لاستنير بنورها ، واحملها الى ابناء قومي في المستقبل . . . . .

فقاطعتني قائلة بخوف : « اذن كنتما تتآمران ( ضدنا ) ولماذا ؟  
السنا اصدقاءكم ، وهل تحملون لنا العداوة ، ونحن في قربكم دولة قوية  
على اعدائكم رفيقة بكم ؟ ماذا ؟ اتمدون وجودنا بينكم ذلالكم واستعباداً  
وهل تطلبون حريتكم عن طريق كرهنا ونحن لم نفكر يوماً بان نضيق  
عليكم او نبغضكم ؟ . . . . . »

فوضعت يدي على فمها بحركة عصبية وقلت لها مشفقاً : « اسكتي  
اسكتي ، يا ايلين ، فانت غرة لاتعلمين ماذا تقولين . اسكتي فان قلبك

الصافي لا يعرف ماذا يجر علينا الاجانب من الويلات ، وعقلك السليم لا يقدر ان يكتشف نفاق البشر وخزعبلاتهم .

فقربت رأسها من صدري وقالت لي باكية : « انك ترعبي ، انك تخيفني ، فاذا تحوي في صدرك ، واي شيطان يحرك عقلك ؟ كنت اظنك ساكنا ناعما كنسيم الارز ، وكمبير الوادي فاذا بك تشبه العواصف . كنت احسبك كهؤلاء القرويين الممثلين عافية ، لا يفكرون الا بالاعمال ولا يمتنون الا بعمالهم ، فاذا بك تتغنى بالحرية ، وتصرف افكارك الى بلادك .

انك ترعبي انك تخيفني ، فقل لي انك انت تعود الى مثل هذه الافكار التي تقصيك وتبعدك عن افكاري ، قل لي انك سوف تظل لي اخا يسليني في وحدتي ، ويقودني الى الحقول حيث نرغمي على الاعشاب تحت اغصان الاشجار ، ونسابق الانهار في مسيرها .

لقد كنت طروبا فلماذا انت خزين ؟ انسيت يوم مشينا على هذه التلة القائمة قبالنا ، فكنت حينئذ ضاحكا ، كازهار الربيع ، نير الفكر كفجر الارز ، خفيف الخطوات كخيوط الغزاة التي تظهر في الافق .

انت تشفق علي ، بل ... تحبني ! انا اعرف فلا تقل لي غرة ،



احسبني لاختك وكن لي ، فانا لا اريد ان تصرف افكارك عني . انظر الى هذه المنخفضات والتلول ، وتأمل كيف تمشي السكينة في جوانب هذه الوادي ، اليس في هذه المناظر السحرية ما يشغلك ويفريك ؟ » .

وكانت لاتزال مرثية علي ، فاقصبتها برفق عني ، وقلت لها : « لاتحاولي يا ايلين ، ان تلطني خلقي ، فانا مجروح متألم وان بدوت لك قاسيا ، فان اقوالك وحدها البسيطة تكاد تستنزف الدمع من مقلي ، ولكن اصبري فان ما ترغيبتي به هو وحده سبب شقائنا وتأخرنا . نعم ، يا ايلين ، ان هذه الربوع هي جميلة وسحرية ، ولكننا لا نستحقها ما دمنا اذلاء ضعفاء .

آه ، يا ايلين ! ما كنت اريد ان تعرفي حقيقة عاطفتي نحوك ، ولكنني لم اعد استطيع الكتمان ، فانا احبك ، احبك واعلم انني مجرم بهذا الحب ، اذ اني لا استطيع ان اقدسه واقيم له معبداً في قلبي ، لان افكاري متوجهة الى ناحية اخري .

احبك وان يكن من شرف في الحب ، فانه يحق لك ان تعترني وتفتخري ، لانك الوحيدة التي جررت فؤادي ، وسلطت عليه اشعة قوية مجهولة انارته ، وقد كان مغموراً بظلمة جهل كئيفة .

ايلين حبيبتي تعالي الي . فانا لا استطيع ان اعيش بدونك ، تعالي فان

افق حياتي سيظل مظلماً الى ان تشرق في فيه ، ورأسي سيدبقي ضيقاً الى ان  
توسعي فيه المدارك بمطفك وحنانك ، وحينئذ تستحقين شكري الى  
الابد .» .

فتضاحكت ، وامسكت يدي ، تجرني الى الخارج ، وكانت الشمس  
مرتفعة في قبة الفلك ، فقالت لي : « اننا سنذهب للنزهة على كتف الوادي ! »  
وقبل ان تدع لي مجالاً للاعتراض مشت امامي فتبعتهما ، وكانت تنتقل  
امامي كالغزاة النفورة .

اما انا فلا اعرف اي رابطة قوية كانت تربطني بها ،  
فكنت اسير وراءها ، كأنها تجذبني جذبا ، وقد بقينا سائرين الى  
ان ابتعدنا عن المنزل واختفيناه وراء تلة يسير في القرب منها جدول  
مترقق .

قادتني الى صفصافة قرب الجدول ، فجلسنا تحتها ، وكنت في الحقيقة  
قد سررت بهذا المنظر البهيج ، فنفيت عن افكاري الكمد ورجعت الى  
زهوي وغبطتي .

وتمددت ايلين على الثرى بقامتها النضرة وثيابها البيضاء ، كأنها حورية  
استحمت بمياه الجدول ، وجلست تتنشف بأشعة الشمس ؛ وكان وجهها



زاهيا ، وشعرها الذهبي منتشرًا حول وجهها الابيض ، كما تنتشر  
انوار الشمس عند الغروب ، حول الثلوج الممدودة على جبال لبنان  
الحيية .

كانت ابلين في سرورها ، كفكرة صافية مملوءة بالأمل والايان ،  
وكان جسمها شبيهاً بحقيقة علوية متشحة بالنور ، وملتفة بالضياء ، فلا يعود  
بإمكانك ان تتفحص ملامحها ، وتزن تقاطيع وجهها .

ولم ترض وقتاً قصيراً ، حتى التفتت الي ، وارسلت نظرات مملوءة  
باشعة غريبة مجهولة . ثم وضعت يدها على شعري تعبت به ، وقالت لي :  
« لقد شاء الزمان ، يا حبيبي ان يجمعنا على هذه الارض الغريبة ، لتتحد  
بالحنين والمحبة ، وتعارف بالطهر .

لنغتتم فرصة الاوقات الهاربة ، يا حبيبي ، ولنبتعث اغاني الحب في  
سكينة الليالي ، قبل ان يضمنا القبر في جوفه المظلم . لنستضيء بنور الحب  
يا حبيبي ، مادام مصباح حياتنا مشتعلاً ، ولنتنج تحت اشعة القمر ، وفي  
ضوء الشمس ، قرب الجداول الجارية ، وفي الاماكن الخالية .

لينعم الناس بافكارهم ، يا حبيبي ، فاذا يهنأ من الخلق ، اليس كل واحد  
منا غريباً على هذه الارض ، مفترقا عن غيره بامانية وآماله ؛ اليس

جميع المبادئ، واهية متناقضة، لم تسعد البشر يوماً، ولم تهدم الى الكمال؟ دلني على افكارك، يا اخي، ولنقف متحدين تحت اجنحة الحب..»

و كنت افتش عن فها، فقبلتها في ثراها، والقيت رأسي على صدرها وقلت لها: «اجل، يا ايلين، لننعم بالحب، ولنرض بهنائه، مادمنالاستطيع ان نجد حقيقة على الارض او كالا. هات يدك، يا حبيبتي، وقودي خطواتي الى جداول الاحلام، حيث ارتوي، واطني لهيب قلبي.»

ان الطبيعة، يا حبيبتي، لم تعد تطربني، فسواء عندي ان اعيش في روضة غناه، تجري فيها الانهار، ويمتل وسطها النسيم، وتفرد على غصونها الاشجار، او وسط قفر موحش لاشجر فيه ولا ماء، تقطعه عصافير المساء خائفة، مادامت الرياض والقفار في قلبي.

انت روضتي يا ايلين، وانت المصفور الذي يفرد على غصن قلبي فيطرد وحشتي، ويؤنسني، فما نفع هذه الربوع بذونك يا ايلين، وما او حشها واقساها! ايلين، انامتطش للحب، انا مشتاق الى عناقك وضمك الي ضدري فان قربك يحيني.



قومي يا اختي قومي ، فان الجلود يقتلني ، قومي لتمشى في هذه  
الامكنة حتى تدمى قدمانا ، ويشكو الينا قلبانا تعب المسير . قومي فاني  
افضل ان اظل تائها في البوادي وعلى الجبال ، على ان امكث جامداً في مكان  
واحد . لنجدد عواطفنا كل يوم ، ولنسق زهرة جينا كل صباح فتدوم ،  
وتبقى نضرة ، زاهرة .

ولست ادري ماذا اخذني وقتئذ فحملتها بين يدي ، وضعت بها  
الى مرتفع كان قائما امامي ، حتى اذا ما وصلنا الى اعلاه ، راينا منبسطة من  
الارض ممتداً امامنا ، على طول النظر ، تسير فيه سواقي عديدة ، خظت  
مجاريها ايدي القرويين وسيروها في ذلك المكان ، كأنها خطوط بارزة ،  
على خرائط جغرافية .»

سرنا على درب ضيقة شبه مستقيمة ، حتى وصلنا الى اول جنيحة  
كانت وحيدة في تلك الناحية ، فدخلناها ، وكانت ايلين مستندة  
على ذراعي ، يكاد يلتصق شعرها بوجهي ، فبغتنا لوجود الشيخ  
جالسا تحت شجرة جوز هناك ، وكاد الحجل يقتلني ، غير انه  
فتح ذراعيه ، وتقدم منا ، فعمرنا وجعل يذرف دموع الفرح  
ويقبلنا .

قال لنا متأثراً : « انتم ولداي يحمل الواحد افسكري وذكري

والآخري يحمل عطفي وحناني، فلا تحاولان تفترقا . ان ايامي صارت معدودة  
الساعات على هذه الارض ، ويسرني ان ارى هذا العطف الذي يجمعكما ،  
فلتباركما السواء !

وعند ما رفع الشيخ يده ليباركنا ، كانت الشمس قد اختفت وراء  
الحجاب ، وبدأ القمر يطل بوجهه المنير في الافق .





## الفصل الثالث

جاء تشرين . وكان رأسي قد امتلأ من تعاليم الشيخ ، وفي مساء  
احد الايام ، ابقاني الشيخ عنده ، وكان الضيف قد هدقواه فلم يبداه كانه  
ان يذهب الي خارج المنزل ، و كنت احس ان روحه بدأت تتسرب من  
جسمه رويداً ؛ رويداً كما تتسرب النضارة من الحقول الصفراء عند مجيء  
الخريف .

بقيت في منزل الشيخ ، وكانت ايلين جالسة في القرب من نافذة  
تطل على الوادي ، مصغية الي اصوات مجهولة متعددة من صفير الهواء ،  
الي دوي الانهار الهابطة في الاودية العميقة ، الي صراخ بعض طيور  
الليل ، الخارجة في تلك الساعة ، تقطع سكون الليل باصواتها  
المزعجة .

وبغثة ، ناداها الشيخ فقطع عليها تأملاتها ، وقال لها : « انتبهني الي  
قولي يا بنتي : لقد تبينتك وانا اظن ان الدهر سيمد في عمري ، فاذا به  
يوقفني على شفير الهاوية ! اني ساموت يا ايلين ، وما اظن ان الصباح سيطلق  
علي ، فلا تذكريني الا بالحسنى .

سأ كأمك الان عن ابيك يا ايلين ، فهو قد اوصاني ان افعل ذلك  
قبل موتي: كان ابوك فرنسيا صالحا ، من هؤلاء الرجال الاخيار الذين  
ينبض في قلوبهم حب الانسانية ، وكانت الارض عنده وطننا واحدا  
مقدسا ، وجميع الناس عليها اخوة ، متساوين بالعدالة والحقوق والحرية ،  
فكان لا يطيق ان يرى شخصا يتعدي على آخر ، أو أمة على اخرى .

كان ابوك محبا للانسانية وعلى هذا احبني ، فقد كنت مثالا لما يحب  
ان يكون عليه الرجل الضعيف المستعبد ، المحب للحرية ، افهمتني  
يا ايلين ؟ كنت ضعيفا شريفا ، وكان ابوك قويا شريفا ، وقدر بط الشرف  
قلبه بقلبي .

ان الجهل وحده ، يا ابنتي ، يولد البغض والاحقاد والمنافسة والطمع .  
ولكن الرجل الحمي ، لا يرضى بالحالة الشائنة التي يوجد فيها الجهل ، بل  
يتمرد ويثور ، وقد ثرت وتمردت ، وما اذكر مرة ، انني رضيت  
بالظلم ، او قنمت بالجور . حتى في هذه الساعة ، فانا اذهب ضحية  
الحرية .

كوني مدركة ، يا ايلين ، واحلي افكار ابيك الصالح ، فانار يدك  
كاملة الصفات ، شريفة الاخلاق ، تشبهين اباك بمواطنك ، كما تشبهين  
الارز بصفاء وجهك ، والفجر بجمالك ، والوادي المقدس برهبة أسرارك :



اريد ان تقنمي بالتضحية اذامادعاك اليها الواجب ، وان تزني عواطف  
غيرك المتباينة عن عواطفك اذا ما اردت ان تحكمي عليها .

ثم التفت الي ، والقي علي نظرات مريضة ، وقال لي : « اما انت  
يا بني ، فماذا اقول لك ؟ لقد كلمتك كفاية في طول هذه المدة التي عرفتك  
فيها ، وما كنت اظن ان التقادير تسمح لي بهذا الزلاقي ، غير ان للغيب  
مشيئة في البشر فوضعك على طريقي ، لتنتقل للناس افكاري بمدان تواريني  
الظلمة .

ان ساعتى قد حانت ، فيما ذا اوصيك ؟ انا لست اريد ان اقول لك  
«جاهد وناضل» فانت اضعف من ان تقوى على ذلك ، ولكن بحق السماء  
لا تستصغر نفسك ، ولا تجبن امام المصاعب ، فان المرء اذا عرف قدر  
نفسه وفهم حقوقه الطبيعية وحرية ؛ لا يضعف ولا يستسلم .

عدني انك ستتكلم بصراحة وحق ، ولو نبذك واحتقرك الناس ،  
بل عدني انك ستبقى بين الشعب ، منضما الى اخوانك الثائرين متنازلا  
عن كل رغبة وأمل ، لتتم رغائب وآمال الاخرين ، مشتغلا للمبدأ  
والاصلاح فقط ، كما يجب ان يكون شباب اليوم . اقسم بتربة والدك  
وجدك ، انك ستظفرو وتكلم . « !

فقلت له ، وانا اكفكف دموعي . « اقسم لك بتربة والدي اني  
ساحافظ على اقوالك ماحييت ، لاني اتلقى كل مايقال لي دون تقصد ولا  
تمحيص بل لاني اجد فيها الصلاح والحقيقة .

انني سأتكلم وان لم يسمعي احد ، وسوف اتكلم بجرأة ، لا اقيم  
وزنا للخوف . سأتنازل عن رغائبي واضحي بنفسي في سبيل مبدأي . سأبقى  
بين الشعب اضعف واحد فيه لانطيع غير الحق ، ولا نعترف الا بالواجب .  
اني اقول كثيراً ولكن ماهي ؟ فانا كاتب ، وبالكتابة ساعمل ،  
واني اعدك وعدا صادقا يا بني ، اني سوف اسخر قلبي وعقلي وروحي  
وايماني وقلبي ، لا بين الحقيقة التي تتخيل في رأسي والماطفة التي تختلج  
في قلبي ، والغاية التي تنور في ضميري ... »!

فابتسم وقال متنهدا : « الان انا استطيع ان اموت فرحا مطمئنا ،  
اجل الان اقدر ان اذهب لملافاة اخواني هادئاً متأملاً .. الان .. قد انقشعت  
عن عيني ظلمة الشك ، وشرقت شمس اليقين ، فلتتبارك السماء .  
دعني الان امضي يا ولدي ، فلم يبق من غاية حياي !! واذا ما مت ،  
فلا تقميا حول جثتي الضججة ، ولا تزعجا روحي بالبكاء فان الحزن  
الارضي الكاذب يؤلمني ! فكرا فيما سمعناه مني ابق بينكما ما بقيتما ،  
وامشيا حسب مشيئتي تسعداني حتى في القبر .



احفرا لي حفيرا في هذا المكان وادفناي، ولا تقيما شيئا على قبري ،  
فان الشجرة التي تفرسائها عليه ، والبناء الذي تقيمانه فوق عظامي لن  
يحفظاني . فان وجودي بينكما بعد موتي هو فكرة تحفظانها لي في  
رأسيكما ، وذكري في قلبكما .

اقتربا مني لاقبلكما . . . اق . . . ت . . . ربا ، ربا ، ربا !

لم يكدينتهي من هذه الكلمة المتقطعة ، حتى اسلم الروح ، فجزعت ايلين  
جزوا عظيما ، ودفنت رأسها في صدري بشدة ، اما انا فقد انتصبت امامي  
بغثة حقيقة الحياة ، وادركت بطلان الآمال التي تمايل في رؤوس البشر  
غير اني فهمت شيئا وقتئذلا ازال افكر فيه الى الان . وهو ان القوي الذي  
يقضي حياته في الدفاع عن الحق ، يستخف بالموت ، ويهزأ من النصيب  
الذي ينتظره في الحياة الاخرى .

كنت محدقا في تلك الجثة المعروضة امامي ، مفكرا بسر تلك القوة  
التي كانت تحركها ، متأملا بهذه البقية النتنسة التي نهبها الارض بعد  
مماثنا . وكنت انظر الى ايلين ، واحس بالنيران التي تضرمها في قلبي  
واقول : « أتكون هذه العواطف الالهية الشديدة التي تقلقنا اليوم فانية  
بفناء الجسم ؟ وهل يستطيع الموت ان يقضي على آمالنا التي لا ترضى بايجاد  
الارض مهما سميت ، ولا تقنع الا بالالوهية .

وبعد ساعات تفكير مؤلم بللت فيها ايلين ثيابي بدموعها الغزيرة ،  
اقصبتها عني كالجندي الامين الذي يعرف واجبه ، وقدمتها معي الى الخارج  
حيث ابتدأت بحفر الحفير حسب وضية الشيخ .

وقبل ان يطلع الصباح ، كنت احمل الجثة الى الحفرة وانزلها فيها  
رويداً رويداً ، وكل دقيقة اتوقف عن عملي لاذرف دمعاً حري فوق  
التراب الذي القيه ، وعندما انتهيت من عملي المضني الكئيب ، جلست فوق  
القبر صامتاً مفكراً ، وقد شعرت بحقيقة الواجب الملقى على عاتقي .

دخلت المنزل ، فرأيت ايلين راكمة تصلي ، فحرت من عاطفة المرأة  
التي تدفعها دائماً لطلب المجهول ناشدة ابداً امامي غريبة و تطلبها حيناً  
في الحب ، وحيناً في الدعارة ، آنأ في الامانة والاخلاص ، وأنا في الخيانة ،  
وهي في جميع هذه الادوار لا تدرك مطلبها . حتى تعرفه اخيراً في  
وساوة التضحية ومرارة العبادة .

وضعت يدي على رأسها برقة . وقلت لها : « هيا يا صغيرتي فالفجر  
كاد ان يظهر . يجب ان تمادري هذا المكان ، يا ايلين ، واني افضل ان  
تذهبي الى بيروت للدخول الى المدرسة . لقد صرت راشدة يا اختي اما  
انا فوالله انني افعل جهدي لا قوم بكل عمل تطليبه مني . .  
قالت لي باكية : « لا تتركني فانا لا استطيع ان اذهب وحدي ؛



ان لي قريبا في بيروت سوف يتولى قيادتي ، وقد خبرت انه ذاهب الى فرنسا فلمنجل بالذهاب الى بيروت قبل ان يغادرها . ولكن ، عدني أنك لاتركني ، وأنت تبقى في جانبي الى الابد !» .

فكدت اقول لها : «أني أعدك» ولكن ، بالمرارة الحياة ! فلست ادري كيف لجم لساني كأن قوة خفية تمنعني عن النطق ! كنت ام أن اطوقها بذراعي ، واقول لها «انت كل آمالي في هذه الحياة» ولكن بالقساوة الاقدار ! فلست اعلم كيف جمدت في مكاني ، كأن قيوداً قوية تصد عني الحركة .

أجل لقد نسيت وقتئذ كل شيء الا الحقيقة الحاضرة . فاعدت اتذكر الا اني قد دفنت بطلامن ابطال الوطنية والحق والحرية قبل دقيقة ، وان المرأة التي تطلب مني الاخلاص ، ليست هي سوي . افرسية !!

لماذا فكرت في هذا ؟ — لست ادري ، ولكن ايلين كانت امامي بقامتها الحلوة ، ووجهها النقي وتمررها انعذب ، ولكن ايلين كانت السلذة التي تنبه اشواق ، والانطفاف الذي يجذب روحي ؛ ولكن ايلين كانت كل امانى في الوجود فكيف تجرأت على ان لا أعدها ؟

قلت لها لاتخافي يا حبيبتي ، فالك ولهذه الافكار ؟ هيا بنا لنترك هذا

المكان ، فانا ذاهب لاحضار السيارة !

وقبل ان اضيف كلمة واحدة على قولي، ذهبت واحضرت السيارة فوجدت ايلين قد هيات اغراضها ، ووقفت تنتظرنا ، ولم يكن في ذلك المنزل الوضيع . ما يصعب حمله ، فنقلنا كل ما فيه وتركناه غير آملين ان نرجع اليه ، وعندما صعدنا السيارة القينا نظرة اخيرة على ذلك البيت الذي جمعنا مدة وتركنا فيه اعز امانينا ، ولم نحول نظرنا عنه حتى كانت السيارة قد ابتعدت بنا .

و كنت افكر بايلين ، واقول كيف تستطيع ان تعيش في المستقبل اذا لم تجد قريبا ، حتى رأيتها قد فتحت حقبتها واخرجت منها محفظة جلدية ضخمة ، ففتحتها وقالت لي بسرور : « انظر الى هذه الاوراق المالية ، فانها تتضمن سعادتنا . »

فلم اجب .

وقد وصلنا الى بيروت فنزلنا في فندق ، تركتني فيه ايلين لتذهب الى قريبا ، على ان تعود الي في صباح اليوم الثاني ، فلم اعرض . . . ولم تنس ان تلاطفني قبل ان تذهب فما كنت لابتهج ، وكانت حرب طاحنة شديدة قاعة في قلبي .

وكأن تشيرين لم يرق له ان يترك الجوصافيا في ذلك اليوم ، فبدأت الغيوم تسير في عرض الفضاء وتلبد ، فلم أعص ساعة حتى كان المطر يتساقط



غزيرا، والرعود تقصف في الفضاء منذرة الكون بمجيء الشتاء كما تنذر  
دقات الطبول الجيش بمجيء العدو .

وكانت ليلة عذاب وذكري تلك الليلة التي قضيتها وحدي في الفندق .  
وكنت احسب نفسي كأنني حييت حياة جديدة ، فنسيت الماضي الجهول  
الذي قضيته في الكآبة والظلمة ، انشد الحقيقة ، واود ان افهم غايتي من  
الوجود ؟

نعم ان ذلك اليوم العظيم في تاريخ حياتي قد اطلعني على اشياء ما  
كنت لا تصور يوما اني سأطلع عليها . وقد عانقت الحياة ذلك اليوم  
فصرت في دقيقة واحدة الرجل الذي انا هو الان . الرجل الحر الذي يود  
من صميمه ان يموت لخير الانسانية ويضحى بنفسه لصالح وطنه .

فيا شباب سوريا ايها الشباب الحبي ، الماشي في طريق الحرية ، تستطيع  
ان تقباني بينك لنكبر هذه الخطوة الضعيفة التي خطوناها نحو المعرفة  
والحرية ، وهلا تقدر يوما ان تتكاتف وتتحد ونصرخ ونهدم كل هذه  
البنائات القائمة على جبال من الاوهام والظلم والخرافات ، لنقيم مكانها  
صروح الحق ، المعرفة والعدل ؟

ان الحالة العصيبة التي نحن موجودون فيها الان لم تعد تحتل ، افلا  
ترضون ان نتمرد كما فعل الشباب في كل امة متقدمة ناهضة اليوم ، ونجدد

لهذه البلاد الذليلة الجاهلة المغلوبة بمجدها القديم، لالنتشبهه بالقدماء بل لنحفظ  
كياننا المتداعي ، وتحد جميعا مستظلمين بظل العدل والحرية والساواة؟  
قلت انني قضيت تلك الليلة مجهدا، تعبنا نأرا، وقد فكرت بايلين  
فرأيت ان هوة سحيفة تفصلني عنها. اجل ! ان ايلين - حبيبتي وحياتي -  
كنت مجبرا على تركها لان القوة الجديدة الهائلة التي تمشت في  
جسدي لم تكن ترحم وتشفق او تترك مجالا للمواطف .

ايلين افرنسية..؟ يكفي ! اني سأتركها.. واذا اكنت سأجد السعادة في  
قربها ، فلا تنازل عن هنائي ! ان قلبي لا يستطيع ان يرتكب هذا الجرم  
العظيم . اما اذا وجد بينكم اليوم من يهزأ بي ، ويضحك مني ، فليفعل ما  
شاء ، فكفى انني قد اقدمت على امر عظيم امام نفسي بوقفني شديدا  
وقاسيا امام الحياة ، وامام الحرية .

غادرت الفندق عند الصباح تاركا فيه هذه الورقة لايلين :

عزيزتي

انا يا اختي رجل ضعيف لا استحقك انت الافرنسية الجميلة الطاهرة  
الشريفة . اما ذلك المطف والاخلاص الذي كنت تتلقينها مني فلم تدفعني  
اليها سوى عاطفة الاخوة .



وداعا يا ايلين ، فلا تحاولي ان تريني مرة اخرى ..

لم تطلق ايلين ان ترى الامل يفلت من يدها بهذه العجلة ، فلم يأت مساء ذلك اليوم الذي تركت فيه الفندق عند الصباح ، حتى ادر كتنى في فندق آخر كنت قد صممت النية على ان اقضي فيه ليلتي ، فأترك بيروت في اليوم التالي .

وكانت العاصفة قد سكنت في الخارج كما تسكن قلوب الانبياء المضطهدين ، عند ما تبدد رياح الابدية عن افكارهم غيوم الارض ، والطبيعة قد استعادت هدوءها الماضي ، كما تستعيد الامة المظلومة حقها المهضوم بعد ان تقاسي احوال الموت ومرارة الاستعباد .

القت ايلين نظرة من وراء زجاج النافذة الى الخارج ، وعادت تقول :  
« انما ليلة مظلمة تشبه ظلمة هذا القلب المغور باليأس ، والمكفن بالهموم .  
ويا ليت فيه عاصفة جائحة ظلومة تقتلع اشجار امه الجرداء ، وتقضي على بقية فصل  
يذعنونه « ربيع الحياة » وادعوه « فصل الموت » !

واتبعت قولها بزفرة حري اظهرت كل ما يجول بخاطر ها ، كما تظهر عظام الاسماك الملقاة على الشاطئ ، نخبأت البحيرة التي استقرت في قعرها التماسيح المعمرة .

اني لا ازال اذكر ، يا ايلين ، يوم نظرتك لأول مرة ، فقد كنت  
جالسا مع الشيخ تأنها حزينا ، و كنت صارفا فكري عن كل شيء الا  
عن بؤسي وشقائي ، فرأيتني - وكأني احزنتك - ورأيتك قد اقتربت مني  
بلطف وحنان ، تخاطبيني بلغتك الرقيقة ، وصوتك الناعم ، تسأليني عن  
سبب حزني وكآبتي .

انك ، يا ايلين ، جبلت باللطف ، وعجنت بالطهارة ، وما اظن ان  
الرقه والجمال قد تجليا في شيء كما تجليا في وجهك النقي ، ولا اعتقد ان  
اسرار السماء وعدوبتها قد كمنقاني شيء كما كمتا وراء عينيك الساحرتين  
الناعمتين .

من انا يا حبيبتي حتى استحق عطفك وحبك ، وما النفع مني ؟ ولكن  
آه ، لقد نسيت : اني شاب عربي يا آنسة ، وبلادي محتاجة الي والى اخواني .  
ان قامي الذي لا يستحق حبك ايتها الافرنسية ، سيتسلح بالخناجر ضدك .  
وذراعي الضعيفة ، ستحمل سلاح الحق في وجهك ؛ ان قيمة نفسي التي  
تبدو حقيرة امام عيني ، هي عظيمة في نظر بلادي ، والدماء التي اراها  
رخيصة هي غيمة يحتاج اليها وطن الوليد والرشيدي ؛ صلاح الدين ، وفيصل العرب !  
افهمتي يا ايلين ، وهل استطعت ان احضر اليك بهذه التماير الضعيفة  
شيئا من افكار التي تلهب رأسي ، وانقل اليك بهذه الالفاظ السقيمة  
صورة حقيقية عن عواظني التي تملأ قلبي !



اما انت يا ايلين فإذا اقول لك ؟ لقد كنت كريما عندما اختارت  
مشيئة العلاء قلوبنا من بين جميع القلوب ليتفاهما بالمحبة ، وبتعارف بالطهر .  
و كنت شريفا ، وقت كانت عواطفى وحياتى مكرسة لاجل حبك ،  
اما اليوم وانا اعرض عنك ، فاننى خائن ، لا استحق ان ادعى شيئا صالحا  
او عاطفة جميلة عالية لنفسى .

ولكن هذه الخيانة التى توقفتنى خجولا امامك مضطربا هي شرف  
لا يستحق ان يحتاج به قلبى ، وقساوتى التى تجعاني اشمئز من نفسى اذ  
اقابل بينها وبين رقتك اللامتناهية ، هي انبل واحلى خلق يتردد فى رؤوس  
اشرف الخلق واكلمهم .

أريدن ان تفهمى حقيقة عاطفتى ؟ — انى اكرهك لانك  
لا تستطيعين ان تمدي كلامي مبررا لموقفى — اننى ابغضك لانك تحسبين  
كلامي جنونا ليس له وزن ولا معنى — اننى اتنى ويلىك وعذابك لانك  
لا تحسبين وجود ابناء بلادك هنا جرما وفضاعة ...

آه ! ما اشد مرارتى ، وما اقسى وجودى !

ايلين ! تعالى الى ، اننى بحاجة الى قلبك وحنانك ؟ تستطيعين بلادى  
ان تنزع جيبك من قلبى لتضع مكانه جيبها الجاني ؟ اتقدر هذه الارض التى  
ادعوها وطنى ان تحطم سعادتي ، وتغتصب منى كأس الحياة لترميها

بميداً ، وتركني في ظمأي ؟ أأبلغ الشاطئ ، وعند ما أريد ان اضع رجلي  
على رماله الامينة ، تقذفني الموجة الجائرة الى عرض البحر ؟ » .  
كنت اقول هذه الكلمات ، وهي تصغي الي وكانها لاتسمع ، وتحقق  
في وكانها لاتراني ، حتى حسبت انها لم تفهم اقوالي ، فذهب معناها ،  
ولم يبق منها غير تلك اللهجة الشديدة الغربية التي كنت اخاطبها بها ، وكانني  
قد سحرتها فنسيت لومي ، وارعت علي بشغف ومحبة .

فاقصيت ذلك الملاك الطاهر عني برفق ، وقلت لها بمحبة واشفاق :  
« لا تخافي يا ايلين ، فاني احبك ، واذا كنت مرغما على الاقتراق عنك  
في هذه الارض ، فان ذكراك ستظل عالقة بفكري ، كما تتعلق روائح  
الزهور المطرية باذيال الريح .

ان هذه الارض ليست بوطن جينا الحقيقي ، يا ايلين ، لان المظالم  
والغايات والشهوات هي شبه غلاف كريبه لهذه العاطفة الالهية التي  
ندعوها حبا ؛ فلا بأس ان نضحني باعز امانينا اليوم ، لنحصل على اعظم  
ما يشتاقه القلب البشري في الغد .

اتني احبك ، ولست اسأل نفسي عن مبلغ ثبات هذا الحب ، او  
وهمه . احبك ، واعلم ان الغد القريب سيبعثني عنك ويقصي محبتي عن  
قلبك ، فلا تعودين تسمعين غير كلمات الكره والبغض والثورة تخرج من



قبي • ستنظرين من شرفتك فتي متشرداً يقود جماعات من الفتيان  
المشردين ، حتى اذا مارآك اشار اليك بيده وصرخ : انظروا ابنة  
الظالمين !

قلت هذا وقت منصرفا •

فقلت لي : « الي اين ذاهب ؟ » •

قلت : الي الموت !!



## الخاتمة

لقد اجبرني الايام على المحبيء الى حلب ، الى هذه المدينة المجيدة ،  
عروس الصحراء ، وحاملة صناعة وجهاد العرب ، وقد ذقت العذاب  
اشكالا والوانا ، ولكنتي في جميع ادوار حياتي ، حتى في ساعات آلامي  
ومصائبي ، لم استسلم مرة الى القنوط ، ولم يعرف الخوف الى قلبي  
سبيلا .

ولكن قلبي قد تطور تطوراً عجبياً ، فانا اليوم نائر ، انا اليوم متمرد ،  
انا اليوم اقدس الحرية ، ومهما تكن مشيئة المستقبل في ، فانا واحد في  
كل الحالات ! ولست بهذا القول امجد نفسي ، وامدحها اكثر مما تستحق ،  
فما هو الفخر لي اذا كنت كما يجب علي ان اكون ؟

على انني الان ادرك انني لست سوى واحد من كثيرين نائرين  
طالبين الحرية في سوريا . ولكن لا بد لي ان اوجه الى اخواني كلمة قصيرة  
أعني لو كنت اقدر ان انفخ فيها قوة الله وعظمته : « ايها الشباب ليس لك تقدم  
وليس لبلادك نجاح ، ولا تتم لك الوحدة الكاملة الشاملة الا بالجهاد والتضحية !





لقد اتني من ايلين هذه الرسالة :

اخى وحيبي

لماذا تركتني ، يا حبيبي ، وما الذي فعلته لاستحق هجرك ؟ الم احبك  
بكل جوارحي ، واعجن قلبي بماء محبتك ؟ ولكن ربما كنت تعرف مالا  
اعرفه ، فلتكن مشيئتك يا اخي .

يقول لي الطيب انني ساموت بمد قليل ، فما خوفي من الموت ؟ ان  
قلبي قد عاش يوما وقضى ، فاذا كرني وخذ ذكري بالاناشيد ، وقل عني  
انني كنت بريئة .

انا ابنة مظلومة يا اخي . انا زهرة نبتت في الحقل قبل ان ياتي  
الرياح الحبيب فغمرني الثلج ، وطواني في اللحد . لكنني اموت مبتسمة  
عندما افكر انه لا بد ان ياتي وقت تنتصر فيه المعرفة على الجهل ، والمدل  
على الاستبداد .

انا الان منطرحة على فراش الموت ، وكان الحى — هذه الزارة  
اللطيفة — قد ادركت ظلمة مستقبلي ، فحملتني على يديها التلقيني في احضان  
المنية المنقذة .

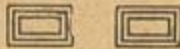
قيل لي انك ذهبت الى بشراي — الى منزل الشيخ المهجور —  
فاذا رحمت تصنع يا حبيبي ؟ ارحمت تستعيد الايام الخالية ، وتذكر

حبيبتيك ايلين ؟ - ايلين المسكينة ! وكيف اتركك ؟ بل كيف ستقضي  
بقية ايامك بهدي ؟ !

انا اعرف ، اعرف ... انك ستجلس كل يوم عند المساء ، محذقا في  
الافق البعيد حيث توارت وراءه حواؤك . شمعطف على البائسين الذين  
كنت منهم ، وتمرد على الظالمين الذين سيروني في موكب الفناء ..  
سيصير لحبك رنة قدسية تتصاعد مع ضباب الفجر لتطلب « لايلينك »  
الرحمة والفران ...

لتغفر لك السماء ، يا حبيبي ، ولتلازم ايامك السعادة ، فانا على الاقل  
قد فهمت ، بعد ان تركتني ، انك محق في عاطفتك ، وقد حفظت قول حكيم  
الارز : « اريد ان تقني بالضحية ، اذا ما دعاك اليها الواجب » .  
فالوداع ! ...

ايلين





## نشيد

اجل ، يا ايلين ، سأذ كرك ، بل ستكون ذكرا كليلي كما تكون الانهار  
الجارية للسهول القاحلة ، واسم الوطن للغريب المستوحش .  
سأخرج للدينيا قلبا نبيلًا ، وعواطف حرة ، اعرض على انظار  
الكون صور الشرف ، ورسوم الفضيلة . سأملئ قلبي من حكمة  
الاجيال ، وامسي قيثارة توقع الحانها ضمن القصور ، وفي الكهوف  
المنسية .

لقد مضيت يا ايلين ، ولم يبق على الارض من يذكرك سوى فتى  
جريح تردد اوديته السحرية صدى عمرك القصير ، وتنمو الكآبة في نفسه  
تمو الارز على جبال لبنان !

ولو لا اثر ضئيل للايام الخالية في روحي ، لما امكنت ان اذكر منها  
شيئا غير ان ايلين لا تزال واقفة امامي بقامتها الناعمة ، ويديها العاجيتين ،  
ونظراتها الكثيبة التي تشبه الشمس عند الغروب .

اني لا ازال اراها ، ولا يقهرني شيء مثل اني لا استطيع ان اوضحها

بالكلام ! ايلين العذبة النقية ايلين اخت المسرة ، وبنت الصفاء ، ايلين .  
ذلك القلب الناصع يياضا ، والحلم الجميل الممتلىء ، راحة وعذوبة ، وكثيرا  
ما ظننتها كالاماني التي تتردد في رأس كل حي سائر تحت وجه الشمس !  
كانت كازهار نيسان ، وكالينبوع يتدفق في مجاري الفكر ، وكضباب  
ايلول المتعالي الي رؤوس الجبال .

كانت كالخضرة للارض ، وكالبدر للجو ، وكالاستراحة للتعب ،  
فتود لو بقيت العمر امامك ، ولا تمليا !

ولم يبق من ايلين غير آهة في صدري . ولم تخلف في نفسي غير ما  
يخلف الخريف وراءه : اوراق صفراء تظل متكدسة حتى تأتي عواصف  
الشتاء فتذريها في الفضاء الواسع !!

لم تترك في قرارة نفسي غير باقة من الزهور الذابلة ، ما نظرتها مرة  
حتى ارسلت الدموع واصعدت التأوهات ، ولم تضع في عيني من عواطفها  
المحبوبة غير سيف من التمرد ، ما هزته مرة حتى استصغرت الحياة ،  
واستحقرت العظام .

انني اسمع اليوم اناشيد الحياة ، واطل فوق جبال الموت كما يطل البدر  
من وراء الافق على قتلى المعركة ، بمدان تغلغت فيها الاشباح ، وخيمت  
عليها السكينة .



وفي وسط ترفمي الذي يشبه ترفع النبي الواقف على تلال الفكر ،  
ارى انك ، يا ايلين ، لاتزالين منتصبه امام فكري كما تنتصب شجرة السرو  
المورقة امام العاصفة الجائرة التي نست عطفها الماضي عند ما كانت نسما  
لطيفا يلعب باصابعه الرقيقة اوراقها اليانعة .

ان روعي التي صعدت الى اعالي الجو ، تهده في عالمها النائي ، وترتاح  
لذكرك يا ايلين ، فلماذا لا اسير الى ايامك الخالية برغبة السائح ، لاجلس  
هنيهة وحيداً تحث شجرتك الوحيدة وابكي قليلا قبل ان يستدعيني نداء  
اصحابي الى الرجوع ؟؟ ...

ساذكرك يا ايلين ، ولو ان في روعي شيئاً من الزهور لوضعته امام  
ذكراك ، كما تضع الابنة اليتيمة باقة الورود امام رسم امها المائتة ، ولو  
ان في قلبي نتفاً من الخلود لغمرت بها اسمك ، كما يغمر ظل الجبل النائي ،  
البقعة المنبسطة التي يضمها الى صدره في الليالي المقمرة ...

نعم وسأمسح روعي بمبيرك ، فلا تصعد منها غير الروائح الزكية ،  
واطلق على كياني تيار حبك المحيي ، فلا يرى فيه الناس غير البطولة  
الحقة ، والحكمة التي تقصيها رياح الارض عن الارض ، فتضيع في  
دقائق الاثير ...

إيلين ... !

يمكن لندائي ان يسدد الغيوم عن وجهك الرضي ، فتنظريني في  
عربي مشرداً حزينا ، وفي افكاري متحرقا عظيما ، فتبسمين لي ابتسامة  
المؤاسي ، حتى انام مرتاحا نومة الطفل الموجهوع ، عندما تطبق اجفانه  
المسهدة اغاني والدته الساهرة بقلق في القرب من مهده !

تمت



## ان معنى موت الشعوب.. السكوت!

اضحكوا ماتشؤون واشدوا الاغاني  
لست والله ضاحكا ما حيت  
ان ذل البلاد يحزن قلبي  
فاذا صفق الانام بكيت  
لم اكن باكيا لو ان بلادي  
سعدت في الجهاد مهاشقت  
ان روحي بنت الدهور وقلبي  
نافث من دمانه ما رويت  
لا تقولوا كتابتي محض فن  
فهي تحيي من مهجتي ما يموت  
هي وحي الاجيال قد فرمني  
شنته في كتابتي ام ايت  
انا احيا للعرب جد فخور  
ببلادي وان بها قد بليت

وحدقت قليلا في ارض الغرفة ، كأنما ترى فيها اشباح القرون سائرة  
متجمهرة ، ثم رفعت رأسها وقالت لي : « احقيقة انت لم تكن تحبني وان  
هذا العطف الغريب الذي كنت اتلقاه منك ، هو مجرد حنان وشفقة ؟  
انظر الى عيني ، الم تعودا توحيان اليك شيئا ، والى تغري الم يعد ينقل  
الى فكرك عذوبة السماء ؟ انظر » .

اما انا فكنت مشيحا بوجهي عنها ، وقد قامت افكاري بيني وبينها  
سدا منيما ؛ فاقتربت مني بغضب ، وقلت لي بحدة : « انك لا تريد ان  
تنظر الي ، فافعل ما تريد ، ولكن لا تقتبط ، فانك سوف تندم . ان  
هذا القلب الذي لم يعرف الحب قبلك سوف يتحول الى غيرك ، وهذه  
الافكار التي لم تتخذ قبلك معبودا سأصرفها عنك لكي لا يبقى منك شيء  
عالق بفكري .

انا افرنسية شريفة ، فلا تترج ايها الاحمق العربي ان تو معنى في شرك  
حبك ، حتى اذا تبين لك ضعفي ، تركتني وذهبت تفتش عن سواي ساخرآ  
منى ومن عواطني . أجل لا تأمل أن تلعب بقلبي ، فان ابنة فرنسالن تسقط  
الى هذا الدرك السافل .

اراك تتألم ! ولكنك خداع ، فلا تحاول ان تغري : ان حبي الطائر قد  
افلت من يدك ، وطار الى مكان مجهول ، فلم يعد ينفعل حرصك وانتباهك .  
فقاطعتها قائلا : « ان هذه الاجل التي تنطقين بها هي مرعبة باليلين ، وهذا



التصريح الذي تقدفني به كما يقذف البركان الذر حمله الى السهول المجاورة  
هو ميت ، فمتى فكرت يا ايلين بهول هذه الكلمات ، ورميتني بها  
حائقة غاضبة ؟

انك لا تستطيعين ان تفهميني ، يا ايلين ؛ لكي ايلين لك حقيقتي ، لان  
الاقدار التي اوجدتك افرنسية واوجدتني عربيا قد جعلت ستارا كثيفا  
على كلامي ، فلا تستطيعين ان تفهمي معانيها . انك حرة يا ايلين لان بلادك  
قد انبتت فولقير وروسو ، اما انا فعبء ذليل ، لان السماء لم تشأ ان  
تفك يوما قيودي ، وتضعني حرا على طريق الحياة .

نعم يا ايلين ، ان هوة عظيمة تفصل ما بيني وبينك ، هوة حفرتها  
ايدي البشر منذ قرون ، ولا يزالون الى الان يعمنون في توسيعها : ان  
قومك ايتها الافرنسية ، هم مقتصبو بلادي ، فكيف ابارك جلا دينا ،  
وابسم لظالمي امي وابي واخوتي ؟

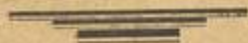
لقد احببتك يا ايلين ، قبل ان افهم ما يجرة قومك علينا من الذل  
والاستعباد - احببتك عندما كنت لا ازال صبيا طاهرا ، لا يعرف  
الا الصلاح ، ولا يقر الا بالطهارة ، احببتك يوم كنت احسب الارض  
جنة والناس عليها ملائكة اطهارا ، اما اليوم . . . اواه ! اتركيني يا ايلين . . .  
كفاني عذابا !

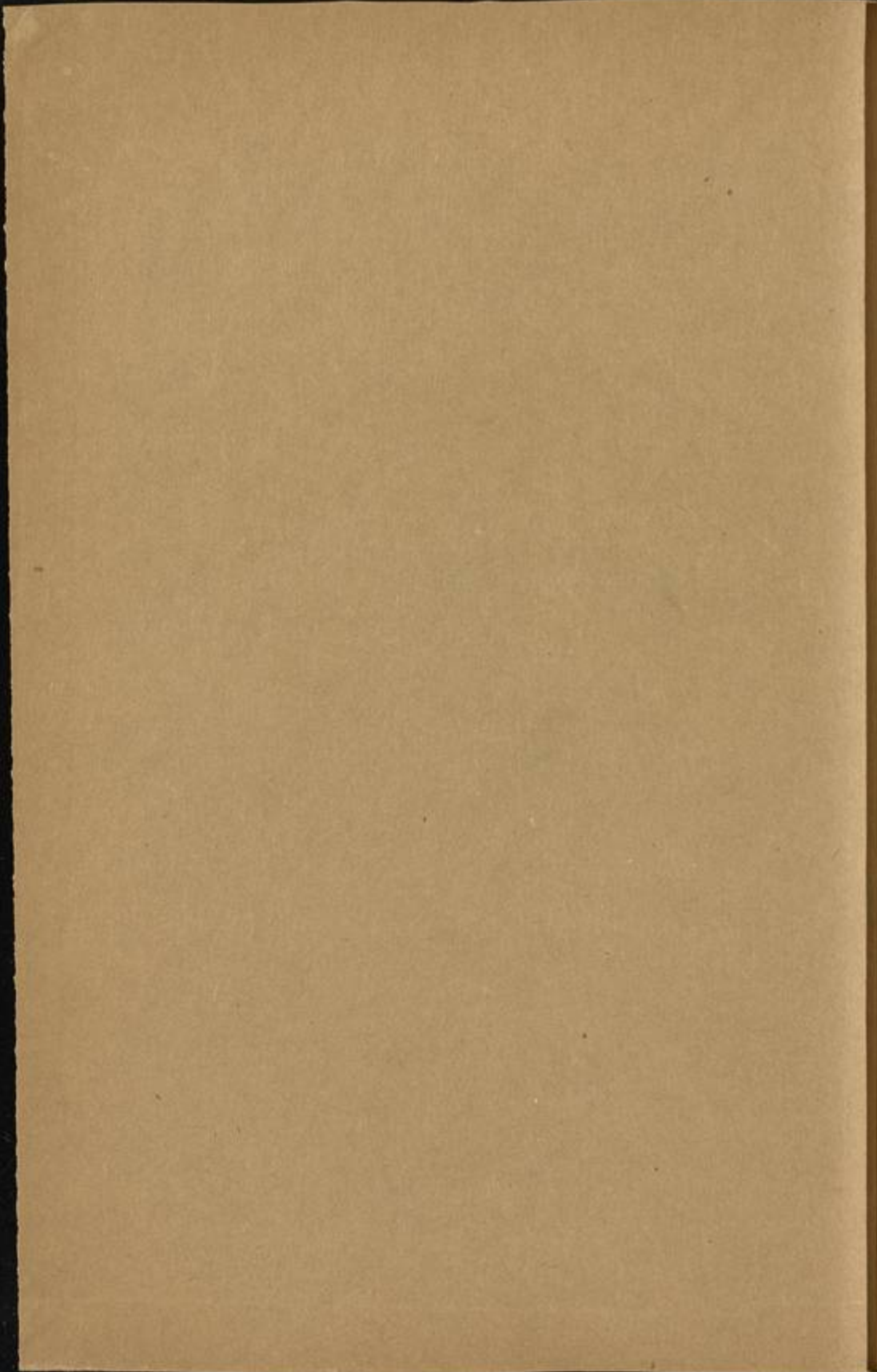
لا تلو موافتي جفته الاماني  
وجفاني الاحباب لما سمعت  
انني اعشق العروبة عمري  
فهني ديني صمت إما حكيت  
لا تقولوا نسيت ماضي جهادي  
لا وربني فاني مانسيت  
انا احيا لمبدي وجنوني  
وعلى ما حيت سوف اموت  
فاكسروا العود ان اردتم شكاة  
لغرام اورددوا ما شكيت  
انا اشكو من المذلة لا من  
حب ليلى ولا نوي من هويت  
انا اشكو من ذل شعب قوي  
حسبوه على الخنوع بيت  
شاغبوا واصخبوا وموتوا كراماً  
ان معنى موت الشعوب: السكوت!



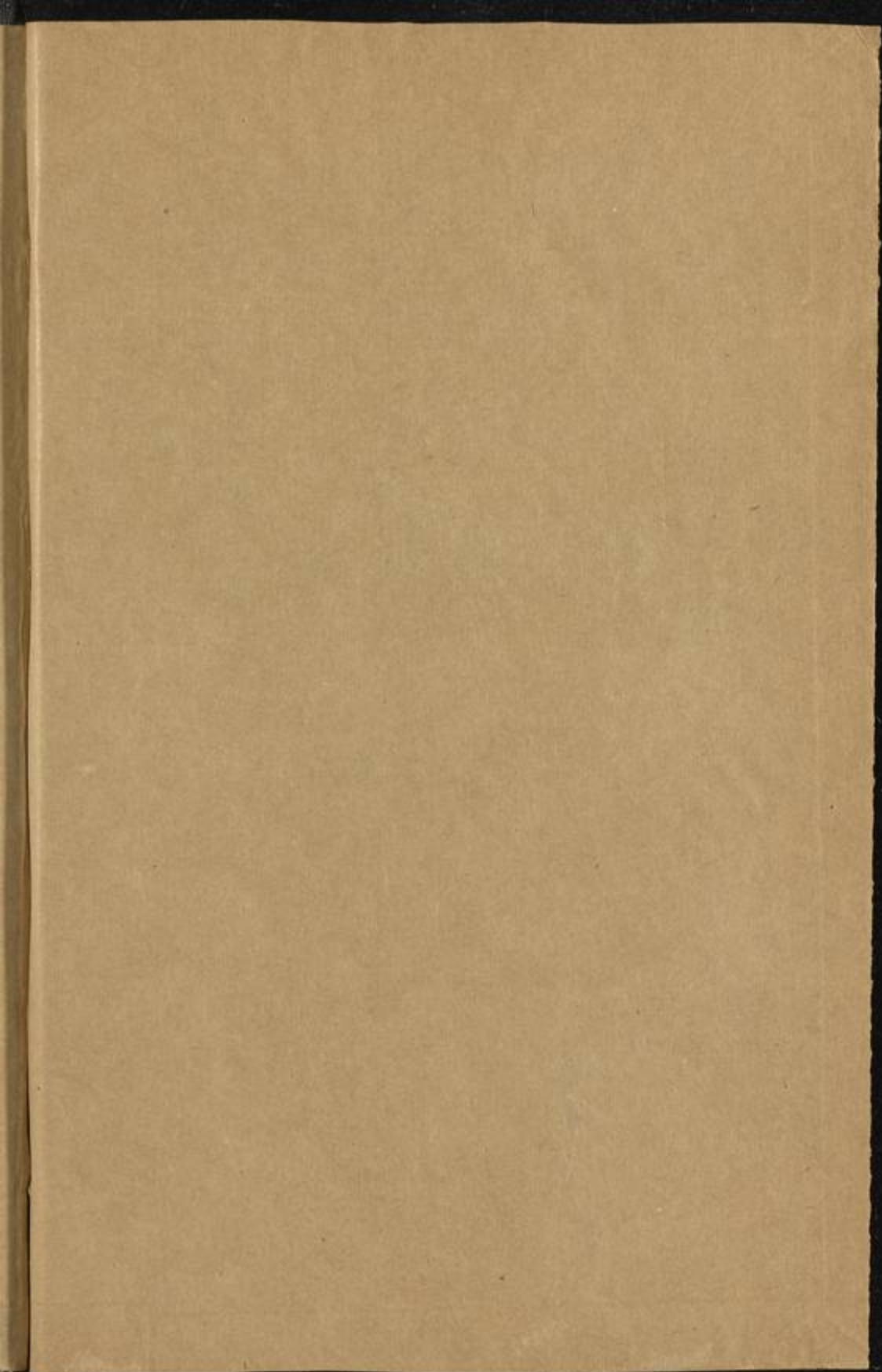
## ملاحظة !! ..

وقمت اغلاط مطبعية في هذا الكتاب لا يمكن ان يخلو منها  
كتاب عربي مهما دقق المصحح ؛ اما الاسباب فتعود  
الى احرف الطباعة العربية ذاتها! ومع هذا فلا يسعني  
الا ان اشكر « مطبعة الاعتدال » التي  
بذات اقصى الجهد لابرار هذا الكتاب  
بهذا الشكل ، فاقضى التنويه!













(NEC)  
PJ7846  
.A49465  
T52